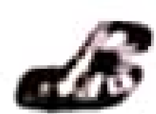
د. أحمد السليماني
أستاذ في جامعة الجزائر

تاريخ مدينة الجزائر

يتعرض إلى ماضي مدينة الجزائر من النواحى الحضارية والاجتماعية والسياسية والثقافية .



ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية . بن عكنون . الجزائر

مدينة الجزائر في القديم

مدينة الجزائر جمالها آية حباها الله بجمال طبيعتها الخلاب الذي يأخذ بألباب الناس، إعجابا وإكبارا، عندما يأتي المساء تراها تعانق البحر بكل حنو ورأفة وشمس الأصيل قد مالت الى المغيب، وترى المدينة تغازل الشفق الأحمر معاتبة إياه متأوهة على فراق شمس الغروب على حين بغته، كيف لا يرغب المرء في جوارها، وتخيم الخواطر بين أنحاءها وأغوارها...دار شهامة وريادة زعامة، أسطولها مرهوب، وجيشها مقدام مرغوب، إنها مدينة الجزائر، مدينة وديعة حقا رعاها الله، جانبها مريع وخيرها سريع، عرفت الرفعة والثراء والفقر ولكنها في كل حال ظلت مرفوعة الرأس، منتصبة القامة تؤثر الشرف على الاستكانة.

مدينة الجزائر لها تاريخ تليد جعل الفنيقيون منها مرفأ صغيرا تلجأ اليه سفنهم التجارية ويبدو أن الاسم الذي أطلق عليها هو أيكوسين، وهو الاسم الذي عرفت به في الأساطير اليونانية، وأسطورتها دونها صولين الروماني وخلاصة الحكاية أن هرقل الا له الروماني صحبه في إحدى سفراته عشرون نفرا، بقصد الوصول الى الغرب ليفصل بين شبه جزيرة إيبريا والمغرب وكان القسمان متصلين، ولما وصل هرقل الى مكان الجزائر للاراحة مع صحبه العشرين أعجب بالمكان فانفصلوا عنه، وظلوا هناك أما هو فقد سار غربا نحو جبل طارق ومن هنا تسمية مضيق جبل طارق بأعمدة هرقل، أما النفر العشرون الذي انفصلوا عنه فقد أسسوا على البر بلد سميت مدينة الجزائر باسمهم أي مدينة العشرين وحسب المعطيات التاريخية فإن مدينة الجزائر كانت موجودة في القرن السادس قبل الميلاد وبعد سقوط قرطاجنة سنة 146 م.ق أصبحت مدينة الجزائر تابعة المملكة موريطانيا المستقلة وإتخذ إسمها صبغة لاتينية فأصبحت تدعى إيكوسيوم

أثناء العهد الروماني في القرن الأول بعد الميلاد وألحقت إداريا بموريطانيا القيصرية التي كانت عاصمتها يول — سيزاري أي شرشال اليوم. وأصبحت مدينة الجزائر فيما بعد كمستعمرة رومانية، والاكتشافات الأثرية تثبت اتساع رقعتها آنذاك وفي القرن الرابع الميلادي تعرضت مدينة الجزائر الى السلب والنهب من قبل فيرموس سنة 372م وهذا نتيجة الاضطراب والتفكك الذي أصاب السلطة في روما.

المدينة في العهد الاسلامي

وفيما يتعلق باستمرارية المدينة في العهد الاسلامي نعتمد ما ذكره إبن خلدون في كتابه: «العبر — ج6 — ص154» فقال: ثم اختط إبنه بلكين بأمره (أي بأمر أبيه زيري بن مناد الصنهاجي في رمضان سنة 360 هجرية) وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر وذكر إبن عذاري في كتاب البيان، (المغرب — ج2 — ص331) إنه في 15 رمضان سنة 337هـ وصل الى الخليفة الناصر، وهو بقصر الزهراء بقرب قرطبة، منصور وأبو العيش، إبنا أبي العافية ومعهما حمزة بن إبراهيم صاحب جزائر بني مزغني.

وذكر جزائر بني مزغني ووصفها إبن حوقل وهو من علماء القرن الرابع في كتاب «المسالك والممالك» صفحات: 42—51—52.

وقال خالد بن عيسى البلوي صاحب تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (ص 151—152) وهو عالم أندلسي قام برحلة حجازية مر خلال ترحاله بمدينة الجزائر واصفا إياها قائلا:

...الى أن وردنا (مدينة الجزائر)، في آخر يوم الخميس الثاني لجمادي الثانية من العام المذكور، والليل قد غول والنهار قد تحول والقلب لا يصبو إلا لأول منزل، ولا يحن الا الى الحبيب الأول، ولما طرزت طرت الظلام يد الاصباح؛

وأرسل الفجر في رداء السحر خيط الصباح أسرفنا مبادرين، وبادرنا مسرعين وتفرقنا في سكك المدينة أجمعين، فرأيت محيّا صبيحا وتربا مليحا، وفسجدا عتيقا، وبناء أنيقا، وأناسا قد سلكو الى الحسن والاحسان طريقا.

من مدينة أقسمت بعلو هضابها الا يفوز مبسم الثريا برشف رضابها فلا ترتقيها إلا الظنون، وكأنها ضب ومن يطمح فيها نون، قد أحاط بها البحر احاطة السوار بالزناد، فألبس ذلك الجسم روح الجد، وركب خلائق الوهد على ذلك النجد.

فأقمنا بها نحكم في حزن الانس وسهله، حكم الصبي على أهله حتى ترب أمد الرحيل، وغلب واجبه على المستحيل، فعزمت على الخروج وسرت على بياض ذلك الساحل وخضرة تلك المروج.

يا بياضا أدري دموعي حتى عاد منها سواد عيني عقيقا

وذكرها إبن بشكوال في كتاب الصلة (ط، مجريط 1883 ص 465) في ترجمة قاسم بن موسى الغشني (بالنون) أن مولده في جزائر بني مزغني هذا وأن بني مزغني المنسوبة اليهم قبيلة من البربر لازالت الى يومنا هذا بقية منها متوطنة بأرض واقعة شرقي مدينة الجزائر، وتبعد عنها بنحو 80 كلم وهذا الوطن متاخم طريق السكة الحديدية الممتدة بين الجزائر وقسنطينة.

تاريخ المدينة في العهد الاسلامي

وتاريخ مدينة الجزائر في العهد الاسلامي ملء بأحداث وتطورات جسام، فقد حكمها ملوك ودول عديدة فكانت في البداية جزءا من مملكة بني حماد ثم أستولى عليها المرابطون، ودانت من بعدهم لسلطان الموحدين عام 1152، ولما حاول بنو غانية أن يعيدوا ملك المرابطين في افريقية، أستولى على بني غانية على الجزائر عام 1185م ولكنه لم يحتفظ بها طويلا، فقد ثار الأهالي في وجهه، وقدموا طاعتهم الى المنصور.

ولكن يحي بن غانية استطاع بالرغم من هذا كله أن يحتل المدينة سنة (623 هـ ــ 1226م) ثم استعادها المأمون الموحدي عام (628 هـ ــ 1230م وفي عام (632هـ ــ 1235م ــ 1234م) خضعت لسلطان أحد الحكام الحفصيين، وما وافت سنة (664هـ ــ 1255م ــ 1256م) حتى كان أهل الجزائر قد طردوا عامل سلطان تونس وأنشأوا ضربا من الحكم الجمهوري، وظلوا مستقلين الى عام (676هـ ــ 1277م) وفي هذه السنة استطاع عامل بجاية الحفصي أن يخمد نار الثورة بعد أن فشل بعد ذلك مرتين من قبل.

ولما كوّن أبو زكريا الحفصي دولة مستقلة في بجاية اعترف أهل الجزائر بسلطان هذا الأمير (684 هجرية ــ 1285 ميلادية).

ولكنهم لم يخلصوا له الاخلاص كله، فقد اغتصب السلطان رجل إبن علان في (سنة 1307) وطرد عمال سلطان بجاية، وأصبحت مدينة الجزائر تحت حكم مملكة تلمسان في عهد إبن حمو الأول، وأصبحت فيما بعد تخضع لحكم المرينيين في الفترة ما بين (1347م 1351).

أما أبو حمو الثاني فقد استعادها مرتين، ولكنه لم يوطد أقدامه فيها، ذلك أن الضرائب التي فرضها رجاله على أهلها أدت الى نفور سكانها فثاروا عليه، واستغاثوا بأبي زيان صاحب بجاية، وعبد العزيز المريني، وأفاد الثعالبة، وهم قبيلة من عرب متيجة، من الفوضى التى عمت البلاد في أثناء هذا الاضطراب، فاستولوا على المدينة وأخضعوا لسلطانهم فعلا فكانوا قبل ذلك قد طردوا بني صنهاجة من سهل متيجة ودفعوهم الى إقليم الأطلس، وعلى كل فقد ظلت مدينة الجزائر تحت حكم الزيانيين.

وبعد اعتلاء أبي زيان محمد حكم المدينة وجعلها عاصمة ملكه في عام (1438 ظل مدّة ولكن بشدته في الحكم أدت الى ثورة أهلها عليه، فقتلوه غيلة في سبتمبر من العام نفسه.

وظلت الجزائر من ذلك الوقت حتى ظهور الأتراك فيها أشبه بجمهورية مدينة صغيرة، يقوم عليها جماعة من أعيان المدنية تحت حماية الثعالبة الذين اتخذوا هذه الحماية وسيلة لقضاء مصالحهم الشخصية.

ولم تكن مدينة الجزائر في واقع الأمر آنذاك إلا سوقا تجاريا متوسطة الحجم، ميناؤها بجوار متيجة هو الذي جعل لها أهمية ووزنا، علاوة على دورها الاستراتيجي في الربط بين الساحل والصحراء.

ولم يكن يومها الملاحون المسلمون وحدهم، بل ظل يرتادها تجار النصارى كذلك، فكانت أساطيل البندقية، وفلورنسا في القرن الخامس عشر ترسو في هذا الثغر كل سنة[1].

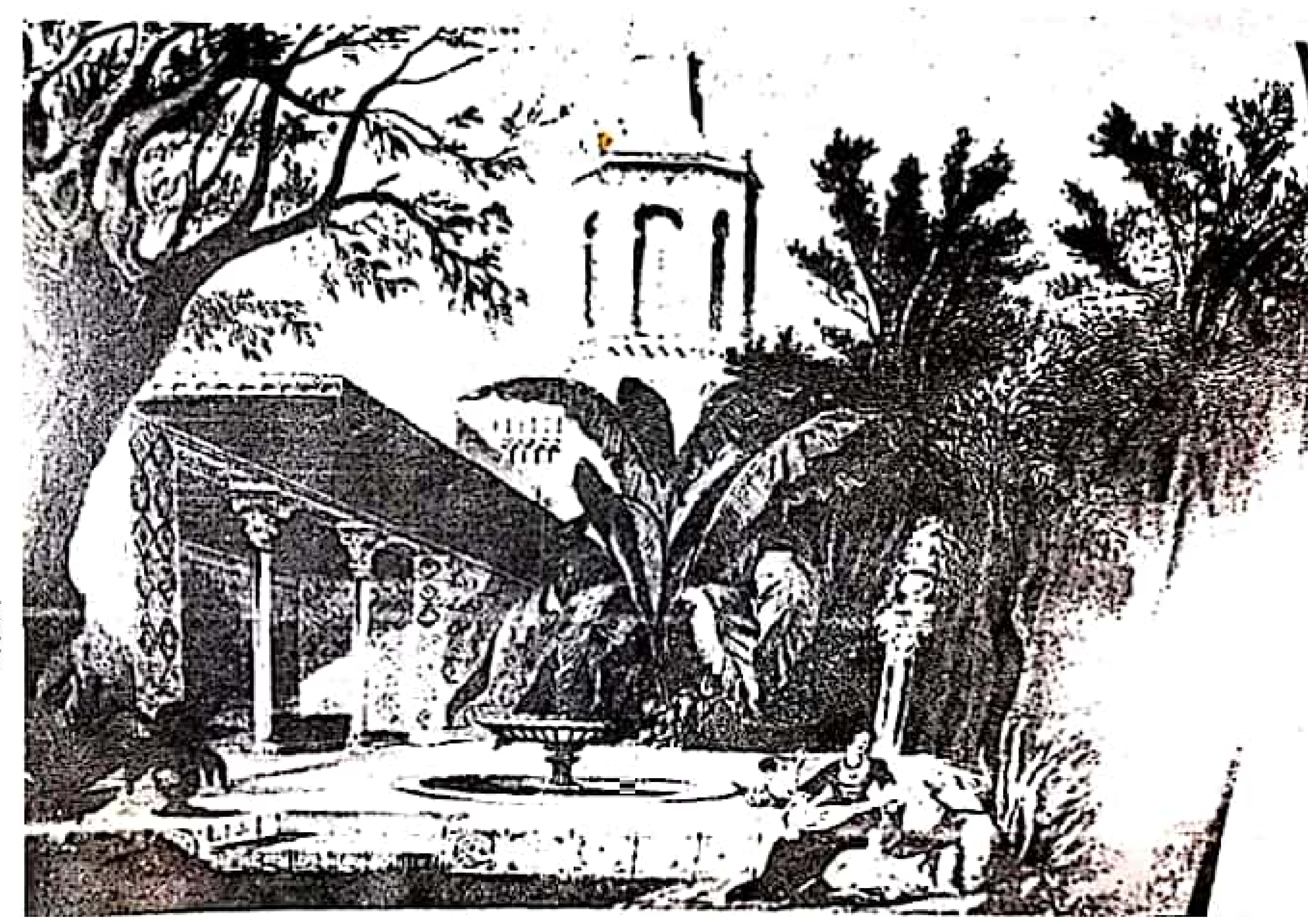
وفي أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، تعرضت الجزائر وسائر مدن الساحل الافريقي لكثير من المتاعب على اثر استعادة الأسبان بلاد الأندلس، فسكانها أخذوا يزدادون بالتجاء كثير من المهاجرين المغاربة واليهود الفارين من نير النصارى في الأندلس.

وقد كان في نية ملوك النصارى اخضاع كل بلاد المغرب العربي تحت سيطرتهم، وقد تنبه سكان الجزائر الى ما يحدق بهم من خطر داهم على أثر استيلاء: بدروا نفارو ـــ واكسيمينس ـــ على مدينة وهران، واحتلال بجاية، فلما عجزوا عن مقاومة الجيوش المسيحية في أول وهلة أعلنوا رغبتهم في الصلح مع الأسبان وهذا ما وقع فعلا.

---

(1) أنظر كتاب: (ماس لاتري Demaslatrie).

وعنوانه: Relations et Commerce de l'Afrique Septentrional avec les nations chrétiennes (du moyen-age) والمعاهدات بين المسيحيين والعرب ـــ بالفرنسية) ص 330 ـــ 333.



ولما ضاقت سبل العيش بأهل الجزائر بعد القضاء على قرصنتهم لم يطيقوا صبرا على هذه الأحوال، وحاولوا الخلاص من نير الاستعمار الاسباني، وقد أفادوا من الاضطراب الذي عمّ بلاد الجزائر بأسرها على اثر نبأ موت الملك: فردیناند، فطلبوا الى سليم التومي أن يرسل وفدا الى بابا عرّوج التركي الذي كان مسيطرا على جيجل منذ عام (1513م)، وقد التمس الوفد منه العون، فلما جاء الى الجزائر حيث كان ينتظره سكانها بفارغ الصبر، فخصصوا له استقبالا حارا، واعتبروه بنقذهم، فأسكنه سالم التومي قصرا فاخرا بجواره تشريفا له.

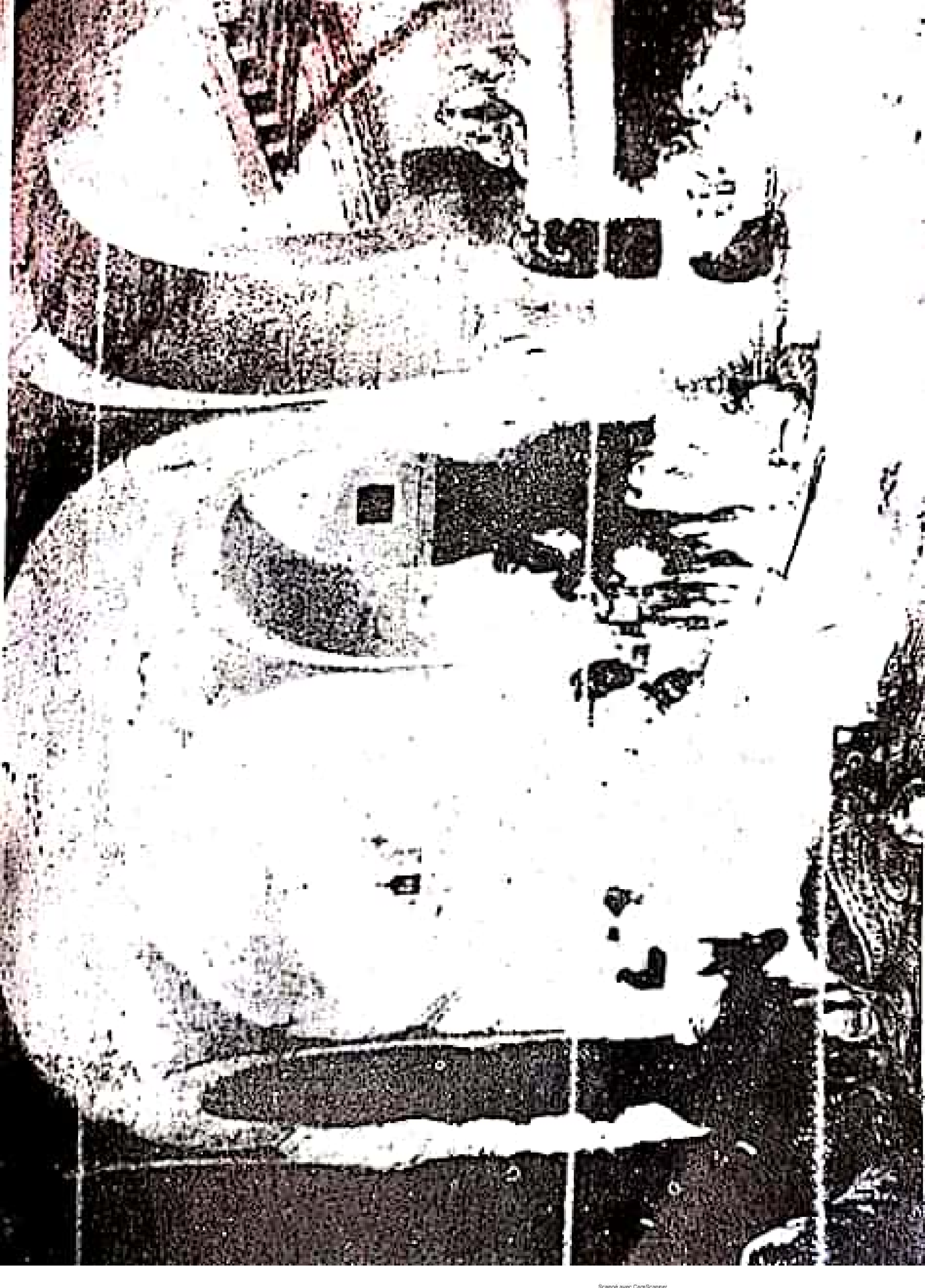
فاستعد عرّوج لمحاربة الأسبان المحصنين في قلعة الصخرة أمام مدينة الجزائر، وتلقى النجدة من أخيه خير الدين، ومن أحمد بن القاضي المدعو بوتطوش شيخ كوكو بالقبائل الكبرى اللذين توجها عن طريق البر.

بينما كان عرّوج يستعد للحرب، إذ أحس بفتور اعترى سالم الذي خشي أن ينتزع الحكم من يده، فأخذ يتجسس على عرّوج فقتله هذا واستراح من المنافسة، وانفرد بالأمر بدون منازع، وأحضر أخاه خير الدين، ونظم الادارة، وجند الجنود وكوّن جيشا قويا أخضع بفضله القبائل العربية والبربرية المجاورة للجزائر، وخصوصا منها قبيلة الثعالبة التي كانت ترعى انعامها في سهول متيجة ودلس.

ولما أستقر عرّوج بالجزائر ودرس موقعها ظهر له أهميتها، وحصانتها، ومناعة المرفأ، فعزم على الاستقرار بها بصفة دائمة.
وأخذ الحكم بيد من حديد واتخذها عاصمة له.

فرأى أنه لا يستتب له الأمر إلا بتمهيد أهل الجزائر فقتل سالم التومي بعد الدخول عليه الى الحمام واغتاله بمعاونة خديمه، وصاحب أسراره رمضان شاوش، واتهم الغير بقتله.

لكنه تفطن له أهل الجزائر الذين شعروا أنه يريد الاستيلاء على الحكم، والطمع في الآمارة، فراموا التمرد بالاعانة بالجيوش الاسبانية ومؤامرة يحي ولد



سالم التومي الذي فرّ الى وهران عند الاسبان خوفا على نفسه من أن يقتل مثل أبيه.

فوجهه والي وهران المارکـي کوماريس الى إسبانيا حيث التقى بالوزير الأول الكاردينال خيمينيس الذي وعده بإعطائه النجدة ورده الى عرش أبيه، وكان خيمينيس إذ ذاك وصيا على عرش اسبانيا في صغر سن: شارل الخامس.

وسبب قتل سالم التومي هو التهمة التي وجهها اليه عرّوج بكونه تحالف مع العدو.

والحقيقة هي أن سالم شعر بالخطر التركي حينا مكث عرّوج وأخوه بالجزائر وعزما على اتخاذها مركزا لهما.

المواجهة الجزائرية الاسبانية

ثار أهل الجزائر وتحالفوا مع الاسبان ضد عرّوج، فقام هذا الأخير بتدبير مؤامرة ضد أعيان المدينة، حيث قتل منهم إثنين وعشرين في مسجد يوم صلاة الجمعة، فأصبح عرّوج منفردا بالحكم لا يزاحمه أحد.

فتفرغ له، وبويع له بالملك، فأعطى لنفسه لقب السلطان، وأخذ ينظم الادارة، والسياسة، ويضرب النقود، ويتولى الحل والعقد، ويفرض الزكاة ويقر الجهاد في سبيل الله ضد العدو الاسباني الذي كان له بالمرصاد، وقد جرت معارك بين بابا عرّوج والاسبان في وهران، وتلمسان.

حيث أستولى على المشور الذي كان قصر الملك بتلمسان، فاعتبر الاسبان ذلك خطر خطير عليهم، لا بالنسبة لمستعمراتهم بافريقيا فحسب، بل أصبحوا مهددين في بلادهم، إذ أن قاعدة تلمسان قريبة جدًا من الجزر الخضراء ومتنزر

إسبانيا الجنوبية الشرقية، وخصوصا منها مالقة، والمارية وقرطاجنة، والبكانطي وغيرها من المراكز الحساسة.

على كل فقد استمات بابا عرّوج في الدفاع عن تلمسان بعد محاصرتها من قبل الاسبان، واستشهد عرّوج بربروس على بعد 92 كلم من تلمسان، بينما كان فارًا متوجها الى بني يزناسن غربي تلمسان على جبل بني موسى قرب وادي بسل أو وادي وجدة في المغرب الأقصى، ولقد كان لموت عرّوج صيت عظيم في عالم الكنيسة، إذا كان يظن المسيحيون أنهم قد قطعوا دابر الأتراك في غربي البحر المتوسط.

غزو شارل الخامس لمدينة الجزائر

بادر شارل الخامس بتوجيه قوة عظيمة الى الجزائر، ليحارب خير الدين حتى يريح المسيحية من هذا الخطر الخطير الذي يحيط بها من كل جهة، فعين على رأس الجيش المكون من 5000 جندي (هوقودي مونكاد) نائب ملك صقلية، وفي 17 غشت سنة 1518م أرست سفن الاسبان بين الحراش والجزائر..

ولنتساءل: هل كان شارل الخامس متيقنا بانهزام عرّوج في الجهة الغربية حتى يفتح جبهة ثانية في الشرق ليقضي على جيوش خير الدين ؟. أو أتاه خبر موته.

وعلى كل حال عندما حل الجيش الاسباني بناحية لاغا قرب الجزائر في 18 غشت سنة 1518م، كان عرّوج محاصرا في تلمسان ولا يمكن بحال للملك أن يكون قد ارتجل جيشا هائلا، وهيأه للحصار البحري، والحرب البرية في ظرف أسبوع أو أسبوعين فإننا نظن أن الأمبراطور أراد أن يضرب القوات التركية من كل جهة وقد تأهب لها منذ زمن.

ولذلك نرى الواقعتين قد جرتا في تاريخين متقاربين. لكن الأمر الذي لا يفهم هو مضمون الرسالة التي وجهها قائد الجيش الاسباني لخير الدين في غشت سنة 1518م حيث يأمره بأن يستسلم والا سيفعل به ما فعل بأخويه إسحاق وعرّوج، فأجابه خير الدين: وأن السيف هو الذي سيحكم بيننا من هو أحقّ بالجزائر.

على كل إما أن تكون الرسالة مكذوبة من حيث مضمونها، وإما أن يكون الهجوم على الجزائر قد وقع بعد 19 سبتمبر سنة 1518م تاريخ استشهاد عرّوج، وإما أن يكون موت عرّوج قد وقع قبل غشت سنة 1518م

ومهما يكن من أمر، لما حلت جيوش العدو بشاطيء البحر قرب الجزائر، أخذ رئيس المدفعية: قونزالفو ربفييرة ـــ يدمر المدينة بمدافعه، فاستولى العدو على كدية الصابون يوم 18 غشت سنة 1518م، حيث يوجد برج الأمبراطور، وقد وقع إذ ذاك الخلاف في الجيش الاسباني، سببه أنه على رأس الجيش قائدان متساويان في السلطة والنفوذ وهما: هوقو ماربنودي مونكاد، وقونزالفو ماربنودي ربفييرة المذكور، وكان هذا الأخير رئيس الطبجية كلّف بمهمة الهجوم على المدينة.

فاحتل في 18 غشت الكدية المذكورة بألف وخمسمائة محارب، وعزم على النزول الى المدينة.

فتعرض له: قونز الفو، حتى يقدم جيش أبي حمّو الزياني وخيالته وكان خير الدين على علم بهذا الخلاف فأسرع بالهجوم على العدو بجيشه حتى لا تعزز قوات الاسبان بالجيش الزياني، وكانت الصدمة عنيفة، فانكسر العدو وفرّ هاربا الى سفنه الراسية بالميناء قرب لاغا، فشتت المسلمون شمله بعد ما حاول الركوب في السفن والأبحار، لكن طلعت عاصفة شديدة في ذلك الحين فبعثرت وشتت السفن، ومات عدد عديد من الاسبان مقتولين بالسيوف وغرق، فجمع القائد الاسباني شتات جنده، وفرّ هاربا في السفن الباقية في ليلة 22 غشت سنة

1518، وقد مات للعدو نحو: 4000 محارب من بين الخمسة الاف الذين نزلوا بساحل الجزائر وغرقت ما يزيد على خمسين سفينة، وكان الظفر لخير الدين الذي جمع أموالا طائلة من الفيء، والعتاد الحربي، والمدافع، والمؤن، والخيل، فعزم أثر ذلك على تقديم طاعته للخليفة العثماني ليكون حكمه مشروعا مبنيا على أسس إسلامية فوجه وفدا الى السلطان العثماني.

انتصار خير الدين على الاسبان

وخلف عروج في الحكم السلطان خير الدين الذي احتل القلعة الاسبانية في مايو سنة 1529 وهدمها عن بكرة أبيها، واستعمل حجارتها لبناء ممر يصل الجزيرة بالشاطىء، وقد باشر بيناء سدود جديدة ليفتح المجال أمام توسيع المدينة.

ولم يترك خير الدين لعدوه راحة، فاستولى على كاستيل نوفو وأسر عددا من سكانها ورهبها وأخذ الفيء الكثير، واشتد غيظ أندريا دوريا الذي أحس بفتور اعتراه لكثرة الانهزامات التي كبده إياها عدوه التركي ولم يعهدها من قبل لأنه كان متشبعا بالتفوق على كل من أشهر عليه الحرب برا وبحرا وأحست المسيحية انتصارها في تونس بأنها عاجزة بتاتا على القضاء على خير الدين، ففكر الأمبراطور عندئذ في فتح المفاوضات معه، وذلك بإيعاز من مستشاريه، ومجلس الكرطبس.

فأراد إبرام صلح مع أمير الجزائر مع عظمة الأمبراطور الذي كان يملك نصف العالم.

فوجه في أواخر 1539م شارل الخامس سفيره (خوان فايقو ؟ من الساسيين الدهاة لا يالته.

فأخذ يتردد بين شارل الخامس وخير الدين طيلة شهور، وكانت شروط هذا شديدة، وهي استرجاع المرسى الكبير، ووهران، وبجاية، وعنابة، وحلق

الوادي وطرابلس، على أن يكف من محاربة الاسبان وحلفائهم، «ويكون صديقا لأصدقاء الأمبراطور، وعدوا لاعدائه» وأن يزيل القرصنة من البحر الذي يصبح بحر تجارة هادئة،[2] وبحر سفن السلم، والأسفار التجارية للمسلمين والمسيحيين.

وكذا يطلق الأمبراطور الأسرى المسلمين وأن يكف عن إضطهاد رعاياه المسلمين بالأندلس؛ ووقع الأخذ بين الملكين ورغم بعد المسافة بين المتفاوضين، حيث أن خير الدين، كان مرابطا بكورفو باليونان بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، كاد الصلح أن يبرم مع بعض التغييرات في الشروط، لكنه ورد خبر المفاوضات على علم السلطان العثماني فعرض لها بإيعاز من فرانسوا الأول، لأن الصلح كان يصبح خطرا عليه ولذلك انقطعت المفاوضات في شهر غشت سنة 1540م.

وبما أن باب الصلح قد سد نهائيا بين المسيحية والاسلام، عزم شارل الخامس على محو الجزائر، فقرر مهاجمتها فجمع أسطولا هاما من نابل، وكطالونيا، وبلنسية، والجزيرة الخضراء، وارغون[3]

وخرج به يوم 19 اكتوبر سنة 1941م من مايورقة، وحل بالجزائر بعد يومين ووقع له ما وقع، وهذا ما سنشرحه فيما بعد، وعزم على أن يهجم على مدينة الجزائر بذلك الأسطول العظيم الذي لن يغلب على حد تعبيرهم.

وقبيل وقوع الهجوم الاسباني على مدينة الجزائر أقر السلطان سليمان العثماني حسن آغا، على إمارة الجزائر، ووجه اليه فرمان توليته والخلعة، وولي على قيادة البحر حسن بن خير الدين الذي تبع أثر والده في الحزم، والأقدام،

---

(2) أنظر عبد الحميد بن أشنهو (دخول الأتراك العثمانين الى الجزائر — ص 189).
(3) أنظر عبد الحميد بن أشنهو (دخول الأتراك العثمانين — ص 190).

والشجاعة، وكان خير الدين يضع ثقته في حسن آغا لما رأى فيه من الاستقامة، والنزاهة، ونكران الذات، وكان له بمثابة الأب يستخلفه في الامارة كلما تغيب.

وكان حسن آغا من سردينية أخذه خير الدين من سردينية أخذه خير الدين صغيرا في إحدى حروبه وأخصاه واعتقه بعد ما أسلم وأظهر نباهة ولباقة في خدمة سيده الذي كان يكلفه بالمهمات، ويسند اليه أموره الشخصية[4].

لما توجه خير الدين الى تركيا سمع شارل الخامس بمغادرته الجزائر بصفة نهائية.

فأراد أن يغتنم الفرصة، فوجه أسطوله العرمرم الى الجزائر سنة 1541 قصد القضاء عليها القضاء المبرم واندثارها.

وكان عزمه تهديم المدينة، وتخريبها من الأساس مثلما فعل الرومان بقرطاجنة بعد الحروب البونية.

أجل كثيرا ما كان البابا بول الثالث يحث شارل الخامس على محاربة الجزائر ويحرّض الناس على القتال في بلاد المسلمين لينالوا الجنة.

وقيل أن سبب عزم شارل الخامس في المبادرة بالهجوم على الجزائر والعجلة بدون كامل التهيء هو أخذ رؤساء حسن آغا مركبين عظيمين مملوئين نقودا وبضائع وسبى ما فيها من الزاد والبشر، فاشتد غيظه وقلقه وهيأ الارمادة وهي مركبة من 400 أو450 قلقاطة حربية، وحاملات العسكر، والخيل، والمؤن، والسلاح، وتحركت الارمادة نحو الجزائر حيث وصلت الى تامندفوست بعد ما رؤيت من الجزائر يوم الاربعاء 27 جمادي الثانية عام: 948 ــ 30 أكتوبر سنة 1541.

(4) وكان حسن مربوعا، أبيض اللون، جميل اللون، حسن البيضة محدقا، كبير العينين وجميلها، لطيف الأخلاق، تظهر عليه سمات الحلم والعدل، ومن شدّة عزو النفس كان سخيا بأمواله مفرط الكرم.

وأرست يوم الخميس عند العصر، وقيل أنها كانت حاملة 90.000 من العساكر و 4000 من الخيل، وكان يقود العمارة أمير البحر الجنوي أندريا دوريا.

أختار شارل الخامس غياب خير الدين في المشرق ليستولي على البلاد، ويحسم مادة القرصنة ويقضي على المسلمين بافريقيا.

وعندما علم حسن آغا بعزم شارل الخامس[5] بالهجوم على مدينة الجزائر، جمع العلماء والأعيان بكل رباطة جأش واستشارهم في الأمر وحثهم على الجهاد والصبر، واستخف كثر العدو ولو أنه شعر بالخطر في نفسه، وشجع الناس على القتال، والدفاع عن البلاد، والدين، وزوّدهم بالسلاح الوافر وصمّموا على دفع العدّو.

ولم يكن شارل الخامس يعرف وضعية الجزائريين، وشدة نفسيتهم، وحين فرغ حسن من استشارة المجلس، بعد تحققه من عزم الجزائريين المتصلب، جاوب الطاغية بكتاب شديد اللهجة يناسب كلامه المتعجرف المملوء بالسب والغلطة، وكان جوابه بالتركية ولما أطلع الأمبراطور شارل الخامس على جواب حسن آغا اغتاظ واستشاط، فتحرك في الحين واستولى على برج مولاي حسن الذي هو فور لامبرور، وكان أيضا يسمى كدية الصابون فخرج المسلمون لمحاربة العدو، ووقع قتال شديد، كانت الحرب سجالا بين الجيش، وانتصر المسلمون في بعض الأحيان.

وكانت شجاعة حسن تؤدي به الى محاربة جيش العدو في وسط شوارع المدينة قرب باب عزّون، ولما وصل فرسان مالطة تصدي لهم حسن وقتل لهم

... الرعب في قلب شارل الخامس الذي
لم يكن يتوقع هذه المعارضة الشديدة من جانب المسلمين، فنزل من برج حسن ليحارب حسن.

فلقي صفوفا متراصة، حتى انسحب وأسرع نحو رأس: ماتيفو حيث التجأ بإيعاز من حاشيته خوفا عليه من الأسر أو الموت[6].

ومن ظروف هذا الحادث هو أن الله تعالى أنزل في تلك الليالي أمطارا غزيرة وهبّت عواصف شديدة. «وهاجت الرياح وساقت السحاب أمثال الجبال، وأمطرت السماء مطرا كالطوفان وهال البحر، واشتدت أمواجه وكثر الاضطراب مالم يعهد مثله، فجعلت سفنهم تتكأ يمينا وشمالا.. فغرق كثير من سفنهم وعطب على الساحل سفن كثيرة.... فعند ذلك دهش الكفار وتحيروا».

فقال بعض المؤرخين بكل جدّ أن شارل الخامس هيأ كل شيء لينتصر على الجزائريين إلا مصلحة الارصاد الجوية.

وقد حالت الزوبعة بين الأعداء الهاجمين ظلما على بلاد المسلمين وبين مؤنهم التي بقيت في المراكب.

وكانت هذه تلاطمها الأمواج، بحيث كادوا أن يموتوا جوعا فأخذوا يذبحون خيلهم الجياد منها وحاملة الاثقال، وراموا التخلل ليهربوا ملكهم واختلقوا الحيل حتى أفلت من يد المسلمين وفرّت السفن وحلّ بالأمبراطور غيظا شديدا، كاد أن يكون جنونا، وأخذ يزبد ويرعض، فنزع تاجه من رأسه والقى به على الأرض، وقسم يمينا أن لا يردّه على رأسه حتى يستولي على الجزائر، ويدكّها دكّا ربما فلم يستجب الله أمنيته.

---

(6) نفس المصدر (ص 200).

وقيل أنه هلك للعدو في المعمعة وفي الزوبعة: 12.000 محارب و4.000 من الخيل من غرق ومذبوحة لتغذية العساكر بلحومها.

وقد استشهد: 2.000 من المجاهدين المسلمين بين أتراك وعرب وبربر.

هزيمة شارل الخامس النكراء

وأبحرت السفن الباقية بما تخلف من الجنود نحو 150 وحدة واستراحت الجزائر من قبضة العدو الجبار الذي تلقى درسا قاسيا لم يتقدم أن أخذه في حياته، وكان في الحقيقة ضربة ربانية له ولأعداء الاسلام، الذين كانوا عازمين على محوه.

ولما خرج الأسطول من مرسى الجزائر وتوجه نحو بجاية ليلتجيء اليها خوفا من استمرار هيجان البحر ومن متابعته من طرف مراكب حسن اغا أو قدوم أسطول خير الدين وبعد مكوث شارل الخامس مدّة ببجاية لترقيع الفتق والاستراحة من عذاب الهزيمة، وأصدر الأوامر لاصلاح مؤسسات الابراج الدفاعية التي وجدها في حالة تخريب.

غادر بجاية متوجها نحو برشلونة بعد ما أنفصلت بعض القطع من الارمادة وتوجهت الى إيطاليا، دخل هو الى أوروبا مخجولا مذموما محتقرا من جانب رعيته وعرضة لتهكمهم وسخريتهم وهجائهم الحاد، وخصوصا منهم أعداء نظامه.

وقد أذيع صيت الجزائر إذ ذاك في أرجاء العالم، حيث تيقن الأجانب بعدم غلبها، وبقيت مدينة الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمان الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه.

وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها وبقي رعب المسلمين في قلوب الكفار مدّة طويلة بقدرة العزيز القهار.

واشتغل حسن آغا بعد ذلك (1542) باخماد نار الفتن التي كان أضرمها المشوشون في كافة أنحاء القطر، بإيعاز من العدو، وفتك فيهم فتكا ذريعا حتى ردّ الأمن الى نصابه ونقول بهذا الصدد أن الحسين بن القاضي نفسه أراد أن يضرب جيوش حسن من القفاء، لكن خاب أمله، إذ أن النجدة التي أتى بها لمساعدة شارل الخامس تأخرت، فوجدت جيوش الأمبراطور قد انهزمت شرّ انهزام.

فأسرع إبن القاضي بالرجوع الى جباله، حيث وصل اليه حسن والزمه على الطاعة، وأداء الزكاة والغرامة، وأعطاه ولده أحمد رهينة وهو فتى عمره خمسة عشر سنة.

وبعد استتباب الأمن وسير الأمور الى مجراها، توفي حسن في شهر سبتمبر سنة 1543م جمادي الثانية عام 650 هجرية بالجزائر رحمه الله.

إيراد مدينة الجزائر من البحر

وبعد هزيمة شارل الخامس النكراء لم يعد لحكام مدينة الجزائر من أعداء أقوياء. فانصرفوا الى شؤون البحر حتى سنة 1830م وقد درت عليهم هذه الأعمال أرباحا طائلة، وكانت بمثابة التجارة الرابحة فأزدهرت المدينة في هذا العهد، وأزداد عدد سكانها بنسبة كبيرة وبسرعة فائقة، فبعد ما كان ثلاثون ألفا عام 1518 بلغ ستين ألفا (60.000) عام 1580 ومائة ألف (100.000) في عام 1634 ميلادية.

وكانت نتيجة مراقبة وتفتيش السفن الأجنبية التي قام بها سكان مدينة الجزائر أن قامت الدول الأوروبية بحملة ضغط شديدة على المدينة، فضربها الأنجليز بالقنابل عام 1622 و 1655 و 1672 فعام 1683 وعام 1628، وقد أحدث ضرب المدينة في كثير من الأحيان ردّة فعل ملحوظة.

وكانت تحيط بمدينة الجزائر في نهاية القرن السادس عشر أي في بداية العصر العثماني في الجزائر أسوار شامخة طولها كيلومتران ونصف تقريبا، علوّها من 10 الى 12 مترا، وعرضها متران، وفي أسفلها خندق كثير العمق وعريض، كوّن كل ذلك مناعة من هجوم العدّو من البحر ومن البر، وكانت تتخلل ذلك بروج محصنّة، وفي البروج والأسوار نوافذ مختلفة الاتساع بعضها واسعة خصوصا المشرفة على البحر لتلقى منها طلقات المدافع، والبندقيات المدعوة الكرابيلا أو كابوس.

وكان للمدينة خمسة أبواب هي باب عزّون، وباب الوادي، وباب الحوت أو الديوانة وباب الجزيرة وكان يدعي باب الجهاد ثم الباب الجديد الواقع جنوب غربي المدينة وهو في أعلاها، وتغلق الأبواب الخمسة من غروب الشمس الى شروقها لا تفتح بأي وجه من الوجوه وطرق المدينة كانت ضيقة جدا وسقوف المنازل متقاربة الى حد يمنع شعاع الشمس من دخول بعضها ويمكن إقامة إتصالات بين مختلف أحياء المدينة بواسطة سطوح المنازل وجميع منافذ مدينة الجزائر كانت تحميها في العهد العثماني تحصينات منيعة مسلحة بالمدافع الثقيلة التي تجعل كل محاولة مباشرة للسفن الحربية للهجوم على المدينة محاولة ميؤوسا منها، لأن المدافعين عن المدينة كانت لهم براعة قوية وعزيمة لا تثنى وكان يحمي واجهة مدينة الجزائر من ناحية البحر، البرج الجديد، وبرج باب الوادي، وبرج الانجليز، وبرج باب عزّون، ومدافع الربوة التي لا تقل عن 180 مدفعا، وإذا نظرت الى مدينة الجزائر من البحر فستبدو في شكلها ولونها، أشبه ما تكون بشراع سفينة ينتشر في مرج أخضر اللون، والجبل المشرف عليها والأرض المزروعة المحيطة بها والتي تغطيها منازل بيضاء وبعضها من المباني الفخمة تترك في نفسك إنطباعا شاعريا أخاذا فهي مدينة وديعة حقا.

وكانت مدينة الجزائر في العهد العثماني تنقسم الى أحياء سكنية، منها حي البحرية الذي تركزت به الطبقة الارستقراطية من الأتراك بالخصوص والمصالح

التجارية، وحي باب الوادي تركز به اليهود التجار، وحي باب عزون للأجانب وأصحاب التجارة من الأهالي ثم حي القصبة القديمة للعرب، أما حي القصبة الجديدة أو العليا فللانكشارية، والدايات، وأصحاب المناصب في الدولة وتحتل معظم هذه الأحياء أسواق متنوعة من أهمها سوق باب عزون، وسوق باب الوادي، ورحبة السمن بالقرب من جامع سيدي رمضان وسوق الشرفين بالقرب من باب الديوانة، وسوق اللوح أي الخشب بالقرب من باب عزون، وبجانبه سوق القمح ثم الفنادق لايواء المسافرين، منها خمسة فنادق كانت توجد في حي باب عزون وخلال القرن الثامن عشر تقدم التطور بمدينة الجزائر الى درجة أنها تزودت من التجهيزات بما جعلها مساوية لأية مدينة أخرى من مدن البحر الأبيض المتوسط، فالتجهيز المائي كان يأتي اليها عادة من خمس خزانات منفصلة عبر الأبيار، وقد أمتدت منها سواقي جوفية بنيت وفق توجيه مهندس مهاجر من غرناطة أي مهندس أندلسي وهو واحد من أولئك الأندلسيين الذين أعتمد عليهم الأتراك من ناحية الحذق الفني، وكنتيجة لذلك فقد تجهزت منازل مدينة الجزائر بماء الشرب والغسل زيادة عمّا كان مسيرا لها من بئرها الصغير، وأستفادت المدينة أيضا من توفر الحمامات العامة والحنفيات، فقد كانت هناك في أيام هايدو حنفية من المرمر كبيرة تمتلىء وتجري مياهها ليلا ونهارا أمام قصر الباللر بأيات، كما كان هناك عبر المدينة عدة آلاف من الحنفيات الصغيرة تجمل المقاهي والدكاكين في مختلف الساحات العامة للمدينة ولقد بنيت حمامات واسعة من طرف حسن باشا، ومحمد بن صالح رايس قائد البحرية الجزائرية الكبير، وجهزت بالماء الساخن والبارد وكانت تضاهي أحسن الحمامات في القسطنطينية.

أما البانيولار وهي المقاصف التي صممت للأسرى المسيحيين فهي شبيهة في حسن تجهيزها بالأحياء المخصصة للأوجاق، وبناء على هذا فإن مقصفا كبيرا حيث يسكن الأسرى الذين تعود ملكيتهم للدولة كان عبارة عن بناية واسعة عرضها أربعون قدما، و طولها سبعون قدما، وقد قسمت الى حجرات صغيرة مع الحزام المائي في الوسط أما فيما يتعلق بخطوط قنوات المياه على مستوى دخولها الى المدينة أو إمتدادها داخلها لم يتمكن المختصون من مؤرخين وأثريين وغيرهم من ضبط شبكات توزيع المياه في العيون العمومية، أما المنازل المزودة بالماء الجاري

فكانت قليلة جدا ولذلك كان لدور العيون العمومية أهمية كبيرة في حياة المدينة إذ هي تعد كمعالم أساسية للمدينة، ولكن مع الأسف أنها سرعان ما هدمت لوقوعها في الطرق التي شقتها مصلحة الطرق في العهد الاستعماري الفرنسي.

أما التجهيزات الكبرى التابعة للدولة والمعبرة عن السلطة السياسية والعسكرية فكانت متمركزة أساسا في الجزء الأسفل من المدينة أما إيواء الجيش الانكشاري فكان يتم عن طريق القلعة وكذلك في ثكنات عسكرية تعدادها سبعة وهي تمتاز بفخامتها وقد أقيمت على نحو استراتيجي بالقرب من باب عزّون وباب الجزيرة، وترتب عن ذلك إقامة سجنين كبيرين تابعين للبيليك على طول الشارع الرئيسي أي شارع باب عزّون.

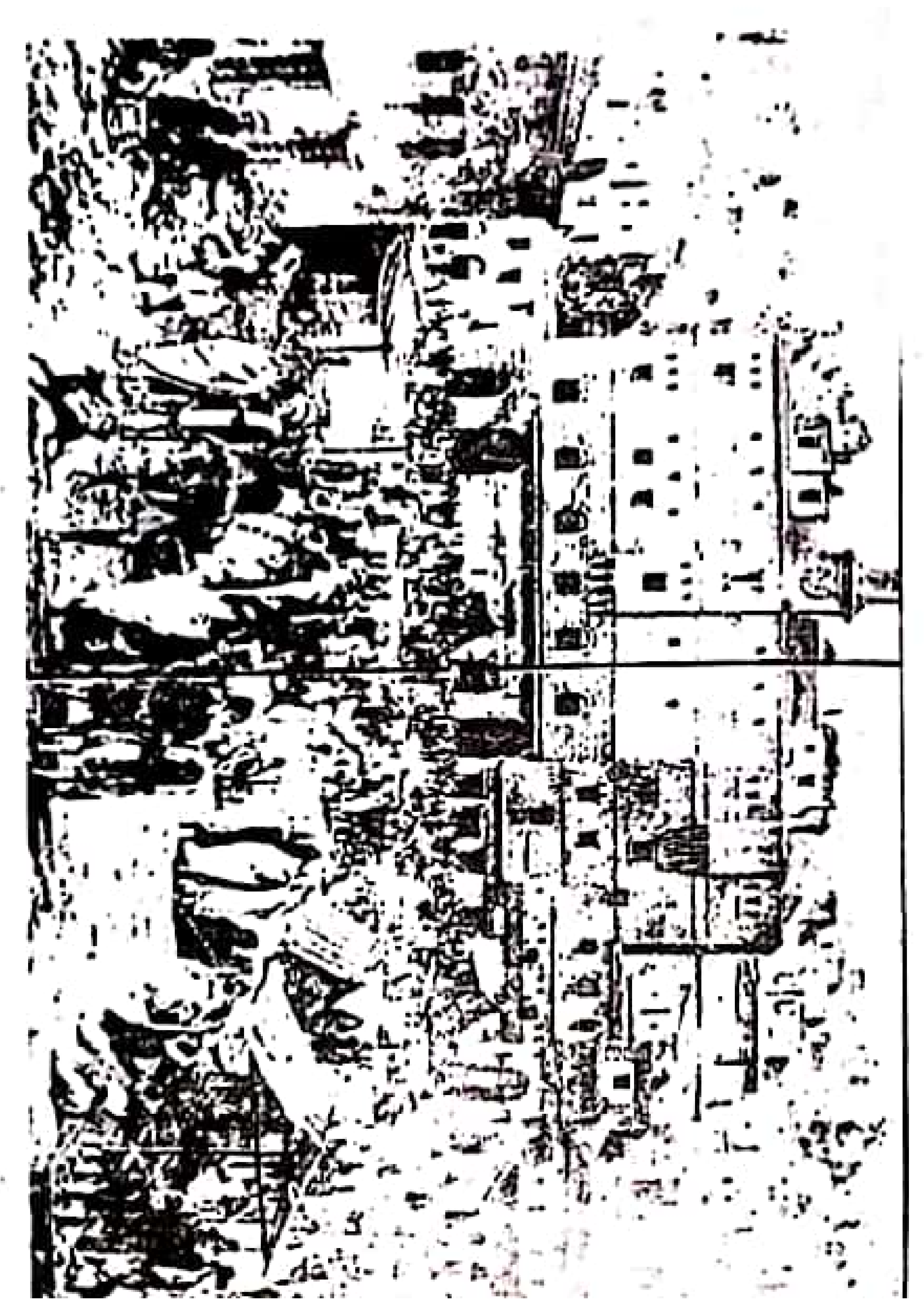
هذا ومما يجب ذكره أن مقر السلطة المتمثل في قصر الجنينة الخاص بالدايات فكان يقع في ملتقى الأنهج الرئيسية للمدينة وهي أنهج باب عزون، وباب الوادي، وباب الجزيرة ويعود تاريخ تشييد هذا القصر الى عهد بعيد جدا من القرن السادس عشر الميلادي، ووقع تحويل المركز السياسي والاداري الى القلعة بعد ذلك بكثير أي سنة 1816م مما أدى الى إدخال تغييرات عليها وعلى المساحات المحيطة بها وتخصيص مراكز إدارية بها وكما هو الأمر بالنسبة لأجهزة الدولة فإننا نجد في أسفل المدينة مركز الحركة التجارية، وقد سبق لي أن ذكرت البعض منها في مقام سابق، وتتمركز منطقة النشاطات هذه طول محورين كبيرين هما: نهج باب عزّون الذي يمتد الى نهج باب الوادي والأول أكثر أهمية من الثاني، نهج باب الجزيرة الذي يمتد الى رصيف خير الدين، وكان باب عزّون يربط المدينة ببقية البلاد ومنه تدخل المواد الأولية التي تستهلك أو تحول في المدينة، أما باب الجزيرة فيخدم العلاقات الخارجية أو الدولية فيتم عن طريقه استيراد وتصدير مختلف المواد، وكما هي الحال في المدن الاسلامية، كانت النشاطات التجارية منظمة ومرتبة على شكل أسواق وتجمعات حسب الحرف، والمهن، وتقابل منطقة النشاط الكثيف هذه مناطق سكنية أساسية تتخللها سويقات.

وكانت وضعية الحوانيت الموجودة على جانبي النهج لا تسمح للزبائن بالدخول ما عدا المحلات التي تقدم الخدمات كالمقاهي، ومحلات الحلاقة وتغلق أبواب الحوانيت حسب نظام محكم يشتمل على مصراعين خشبيين ينفتحان أفقيا يتخذ أحدهما غطاء والثاني منضدة لعرض البضائع ولقد ترتب عن النشاط الاقتصادي ظهور تجهيزات خاصة تتجلى في أشكال معمارية متميزة مثل الفنادق والرحبات والأفران والحمامات ولكن مع الأسف غير معروفة بدقة ومندثرة في معظمها وأن الدراسة الشاملة للارشيف العربي التركي هي وحدها الكفيلة بإزاحة الغموض الذي يكتنف هذه الجوانب الهامة من حياة المدينة، وعلى كل حال فإن المدينة لا تنحصر في حدودها المتمثلة في الأسوار فهي تغطي جزءا من المساحات الممتدة حولها المسماة بالفحص أي الناحية والتي تخضع مباشرة للمدينة، وكانت هناك ثلاثة نواحي أو مناطق هي: فحص باب عزون، وفحص باب الوادي، وفحص الباب الجديد وتناسب تسميتها أسماء الأبواب الثلاثة المتصلة بها.

ولتحسين تحصين مدينة الجزائر تم بناء أبراج على مقربة من المدينة في مرحلة أولى برج مولاي حسن وبرج بوليلة ثم بنيت في مرحلة ثانية أبراج لتحصين نقاط الضعف في أماكن مختلفة من الجون الممتدة من رأس تامنتفوس[7] الى مرسى الذبان وكان امتداد الأنشطة خارج المدينة يتمثل في المحاجر وأفران الكلس ومصانع القرميد الموجودة أساسا بفحص باب الوادي ويبدو أن ضيق المساحة الموجودة داخل أسوار مدينة الجزائر أدى الى بناء مساكن ثانوية واسعة للاقامة تقطنها الفئات المترفة وهكذا كان الريف المجاور للمدينة ولا يزال عدد كبير لا يستهان به موجودا الى يومنا هذا في بعض أحياء المدينة العصرية والى جانب هذا توجد محطات خاصة بالمسافرين وهي في أغلب الأحيان توضع تحت رعاية أحد الأولياء الصالحين.

---

(7) أنظر دراسة لبلبان مسلم مؤرخة في الفن حول تركيب مدينة الجزائر قبل 1830/ص25/8 نشرت في كتاب القصبة من نشر ديوان رياض الفتح 84 ــ 1985.



وحسب التمغروتي الذي زار الجزائر سنة 1003هـ 1595م وصف لنا المدينة فقال: الجزائر عامرة كثيرة الأسواق، كثيرة الجند حصينة، لها أبواب ثلاثة وفيها لمسجد الجامع واسع إمامه مالكي المذهب وفيها ثلاث خطب أحدها للترك إمامهم حنفي المذهب، ومرساها عامر بالسفن ورياسها أي رؤساء البحر يقهرون النصارى في بلادهم ـ فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد إفريقية، و أعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأوجد سلعا ومتاعا حتى أنهم يسمونها إسطنبول الصغرى.

الجانب العمراني لمدينة الجزائر

بسبب عمليات الهدم الذي تعرضت اليه مدينة الجزائر أصبحت معالمها العربية الاسلامية غير واضحة ودقيقة بينما شكلها ذات الطابع الأوربي أضحى واضحا أكثر بعد ما كثف الاستعمار الفرنسي من بناء العمارات والمساكن والمراكز الادارية عند احتلال المدينة عام 1830.

وكانت مدينة الجزائر محصنة بأسلوب مضبوط، وقد سبق أن ذكرنا ذلك آنفا ولها مراكز في الأسوار بالذات خاصة بالمدفعية، وتركزت نقطتا الدفاع عن المدينة في القلعة التي تشرف على المدينة والمرسى. وكان جدار التربة مدعما بخنادق معززة بجدار خارجي مائل بشكل منحدرا. أما الجدار الجنوبي فكان بشكل تحصينا مموّها. وكما سبق ذكره فكانت مدينة الجزائر لها ستة أبواب كمدخل للمدينة تربط بينها وقلعتها ومرساها وباقي أنحاء القطر. أما نظامها الدفاعي فجرى إعداده، وتكوينه في القرن السادس عشر وأدخلت تعديلات طفيفة في القرون التالية.

وترى السيدة ليليان مسلم أنه من خلال الصور التي وصلتنا يبدو أن السوق لم تعرف في مدينة الجزائر الوجه المعماري الفخم المعهود في بعض المدن الاسلامية الأخرى، فالدكاكين والمعامل توجد على جانبي النهج، وهي عبارة عن فتحات أنشئت في أسفل المنازل أو غيرها من المباني دون أن يكون لها إتفاق بها من الداخل.



فأشكال الدكاكين الموجودة على جانبي الأنهج لا تسمح للزبائن بالدخول باستثناء المحلات الكبرى مثل المقاهي ومحلات الحلاقين. وتغلق أبواب الدكاكين حسب نظام محكم يشتمل على مصراعين خشبيين ينفتحان أفقيا يتخذ أحدهما غطاء، والثاني منصدة لعرض البضائع على الزبائن والمارّة.

وإن الحركة التجارية والاقتصادية التي عرفتها مدينة الجزائر أدى ذلك الى ظهور أشكال معمارية مثل الفنادق، والرحبات، والأفران، والحمامات ولكن ليست لنا نظرة أو تصور كامل حول أماكن وجودها بالضبط فلا بد من دراسة شاملة ودقيقة للوثائق التركية العربية لرفع الالتباس الملحوظ في هذا الجانب العمراني الهام(8).

ومما يجب ذكره أن مدينة الجزائر لا يمكن تحديد معالمها من خلال ما يحيطها من أسوار ودور قصور قائمة داخل المدينة، وإنما هي تغطي جزءا كبيرا من المساحات الممتدة حولها بدعي الفحص، وامتد نشاط المدينة الصناعي خارج المدينة ويكمن في المحاجر أي مركبات تكسير الحجر، وأفران الكلس، ومصانع القرمود وهي موجودة في فحص باب الوادي، وأدى تزايد عدد السكان وتحسين مستوى المعيشة الى البحث عن منابع المياه وبناء القنوات لنقلها الى المدينة. وكانت مدينة الجزائر تحصل على مياه الشرب عن طريق أربع قنوات كبيرة بنيت في فترات تاريخية معينة أبتداء من القرن السادس وأنجز بناء القناة الأخيرة في القرن الثامن عشر.

التنظيم الاجتماعي لاهالي المدينة

أن أهالي مدينة الجزائر في العهد العثماني من ناحية تنظيمهم الاجتماعي يكونون هرما كاملا من الفئات الاجتماعية، كانت الطائفة التركية تمثل واحدة

---

(8) أنظر لبلبان مسلم تركيب مدينة الجزائر قبل سنة 1830 ص 26/ الكتاب عنوانه الفضة والهندسة المعمارية وتعمير المدن.

من الطوائف الهامة التي تحتل القمة، وكان تعدادها لا يتجاوز عشرون ألف نسمة في جميع أنحاء القطر الجزائري، وهناك من يرى أن الطائفة كانت منعزلة أحيانا عن الأهالي الجزائريين من أجل الحفاظ على سطوتهم السياسية أو صيانة تقاليدهم المميزة في العيش.

وكانو يلجأون الى وسيلة ميسرة للحفاظ على وضعهم الاجتماعي الخاص فيجلبون بين الحين والآخر جماعات من أتراك الأناظول في فرق الأوجاق أو الانكشارية للعمل في الجيش التركي العامل في الجزائر. وإن الأقلية التركية الحاكمة في الجزائر كانت لها وضعية خاصة تعيشها ولا أعتقد كما يرى البعض أن وضعيتها خلقت نفورا وعداوة مع الأهالي الجزائريين لأن الرابط القومي الذي كان يربط الجميع من جزائريين وأتراك هي رابطة الدين الاسلامي فأزال ذلك كل حساسيات وخلفيات مهما كان نوعها أما المجموعة السكانية التي تحتل المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي، فهي جماعة الكراغلة التي تكونت من الزواج بين الجند الانكشاري والنساء الجزائريات وقد تكاثر عدد هذه الجماعة مع مرّ السنين بالمدن الكبرى حتى بلغوا في نهاية القرن الثامن عشر في مدينة الجزائر حوالي 6000 نسمة ورغم اشتراك الكراغلة مع الأتراك في الأصل إلا أنهم أبعدوا عن المهام الكبرى خوفا من سيطرتهم على شؤون البلاد، ولا سيما أن الكراغلة بحكم قرابتهم مع الأهالي وارتباطهم بالبلاد كانوا قادرين على تكوين حلف وطني يهدد امتيازات الطائفة التركية، وقد برهنت الأحداث على فاعلية هذا التحالف الوطني عندما استعان علي خوجة لقمع ثورة الانكشارية بمجموع الكراغلة وفرق زواوة في سنة 1817م أما باقي سكان المدن بما في ذلك الجزائر فيمكن تصنيفهم حسب أوضاعهم الاجتماعية الى ثلاث طبقات، طبقة الحضر وطبقة البراني، وطبقة الدخلاء وقد كان العنصر الأندلسي عاملا إيجابيا في الحياة الاقتصادية فبفضل نشاط الأندلسيين وثرواتهم التي حملوها معهم أو تحصلوا عليها من ممارسة التجارة وأعمال البحر فنهضت كثير من المدن الجزائرية بعد أن كادت أن تنقرض



كشرشال، والبليدة، والقليعة وازدهرت زراعة البساتين، وأدخلت مزروعات جديدة كقطن مستغانم وعناب عنابة، كما أصبحت القليعة مشهورة بإنتاج الحرير الطبيعي.

وعلى كل حال فطبقة الحضر عموما كانت قانعة بما تملكه من دكاكين وبساتين ولم تطمح الى ارتقاء المناصب السياسية، وأن كان بعض أفرادها قد تولوا مناصب القضاء والافتاء والكتابة، وبعضهم الآخر كان على ثقة واحترام الحكام مثل السيد حمدان خوجة عكس طبقة البراني التي بقي أفرادها ينتسبون الى مواطنهم الأصلية التي قدموا منها قبل أن يستقروا في المدن الرئيسية ومعظمهم . أفراد طائفة البراني في مدينة الجزائر كانوا يشتغلون في مهن متواضعة، فالأغواطيون اشتهروا بالتنظيف، والبساكرة بحمل الأثقال والحراسة، والقبائل بأعمال البناء، والزنوج بخدمة المنازل.

أما طبقة الدخلاء المتميزة عن مجموع السكان لأسباب دينية وحضارية فهي تعتبر دخيلة على مجتمع المدن وأن كانت أحسن حالا من طبقة البراني من الناحية الاقتصادية ومستوى المعيشة وتضم أيضا جماعات الأسرى المسيحيين المستخدمين في الحانات أو السجون أو مسخرين للخدمة في قصر الداي أو رعاية بعض البساتين.

وبدأت أهمية الأسرى تنقص في بداية القرن التاسع عشر، وكاد عددهم يتلاشى بعد هجوم اللورد أكسموث في سنة 1816م لمدينة الجزائر، ولهذا أصبحت طبقة الدخلاء تشمل في أغلبيتها الجالية اليهودية سواء أولئك الذين استقروا في البلاد الجزائرية منذ القديم، ومن أتوا الى الجزائر من إسبانيا في أوائل القرن السابع عشر، وهذه الطائفة الأخيرة من اليهود الأندلسيين تنتمي اليها أغلب العائلات اليهودية الموسرة .

وكثير من يهود الجزائر حصلوا على ثروات ضخمة نتيجة ممارسة السمسرة والربى والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية مهما كانت

بسيطة أو تافهة حتى أصبح العربي في مدينة الجزائر على حد تعبير روزي: لا يستطيع أن يبيع دجاجتين بدون وساطة مأجورة من أحد اليهود.

رعايا وسكان المدينة

في الحقيقة أن المدينة بدأت تعمر شيئا فشيئا بالمهاجرين الأندلسيين، والعرب ومعاقل الثعالبة والبربر أمازيغن و«اليهود العرب». أما المهاجرون من الأندلس، فأتوا خصوصا من الجزيرة الخضراء، وميورقة، ومنورقة واليابسة.

وكما ذكرت سالفا، فإن عدد سكان مدينة الجزائر، كان ما يقرب من ستين ألفا، نصفها إسلاميون أوروبيون، قد أسلموا بعد أسرهم في البحر وأندمجوا في المجتمع الجزائري، و 12,500 من العرب والبربر المتبلدين، وستة آلاف من الأندلسيين، يدعون تقارين، وموريسكوس، وهرناتشيروس، و 5000 يهودي، وعدد من الكرغليين، وهم أبناء الأتراك والعربيات والبربريات.

وكان الترك يكونون طبقة من الخاصة، شديدة الارتباط بعضها ببعض، وقد وفد أغلبهم من آسيا الصغرى، وأنضموا الى صفوف اليلداش.

وكانت النظم التي يخضع لها جيش اليلداش هذا، تمكنهم من الوصول الى أعلى المراتب، أي مرتبة الآغا، بل تؤهلهم لأرفع المناصب المدنية.

وكان الترك جميعا، حتى ولو كانوا من صغار الانكشارية، ينادون باسم الافندي، ويلقبون بالسادة، ويمثلون جزءا من أعيان المدينة.

من جملة الرعايا الذين كانوا موجودين في مدينة الجزائر نجد عددا من البسكريين الذين كانوا يتعاطون المهن البسيطة، وبني ميزاب الذين كانوا أصحاب الحمامات والجزارة والتجارة، وعدد من السودان أصلهم من غينيا، ومالي وغيرهما.

وحسب حمدان بن عثمان خوجة صاحب كتاب المرآة الذي ألفه في سنة 1833، حيث يذكر أن أهل مدينة الجزائر في الأصل من العرب الأندلسيين الذين فروا من إضطهاد الاسبان الذين استعملوا مضيق جبل طارق، كوسيلة لاقتراب جريمة الاغراق حتى وصل عدد ضحايا الأندلسيين ثلاثة ملايين نسمة.

ويذكر أن جزءا من سكان المدينة يتكون من عرب وترك، الأطفال الذين يولدون نتيجة الزواج بين هذين الصنفين يسمون الكراغلة وسبق أن أشرت الى ذلك في مقام سابق.

صفات الجزائريين

وكان يقيم في المدينة أيضا، أعراب وقبائل لهم نفس عادات ونفس حضارة العرب والأتراك ويرى حمدان بن عثمان خوجة صاحب المرآة أن الدهر قد أتى على الأصول الأولى لاهالي المدينة، وأصبح جميع الذين يقيمون في المدينة جزائريين[١٠].

ويرى أن سكان المدينة شجعان واجتماعيون، وأوفياء للعهود، وكرماء وبسطاء في نمط حياتهم ونظيفون في منازلهم، وصناعيون وتجار، وإذا وضعوا ثقتهم في بعض فللابد، وإذا خدعهم أحد فيحذرون هذا الشخص بصفة دائمة.

ويجري البيع والشراء عندهم بدون عقد وبدون شهادة، وبكل أمانة ينفذون جميع التزاماتهم.

---

(10) أنظر حمدان بن عثمان خوجة: المرآت.
تعريب / محمد العربي الزبيري (ص 101 ــ 102) ومما يجب ذكره أن حمدان بن عثمان خوجة ألف كتابه هذا في سنة 1833 بعيد الاحتلال بقليل، وضاعت النسخة العربية الأصلية، وبقيت نسخة تركية، ونسخة فرنسية وعنوان هذه النسخة الأخيرة: لمحة تاريخية وإحصائية حول أيالة الجزائر، وهو يشتمل على مجلدين، لم يصل الينا سوى الأول (أنظر تمهيد. د/ محمد العربي الزبيري، ص 44، عند تقديمه لكتاب المرآة المترجم الى العربية).

وحسب حمدان بن عثمان خوجة صاحب كتاب المرآة الذي ألفه في سنة 1833، حيث يذكر أن أهل مدينة الجزائر في الأصل من العرب الأندلسيين الذين فروا من إضطهاد الاسبان الذين استعملوا مضيق جبل طارق، كوسيلة لاقتراب جريمة الاغراق حتى وصل عدد ضحايا الأندلسيين ثلاثة ملايين نسمة.

ويذكر أن جزءا من سكان المدينة يتكون من عرب وترك، الأطفال الذين يولدون نتيجة الزواج بين هذين الصنفين يسمون الكراغلة وسبق أن أشرت الى ذلك في مقام سابق.

صفات الجزائرين

وكان يقيم في المدينة أيضا، أعراب وقبائل لهم نفس عادات ونفس حضارة العرب والأتراك ويرى حمدان بن عثمان خوجة صاحب المرآة أن الدهر قد أتى على الأصول الأولى لاهالي المدينة، وأصبح جميع الذين يقيمون في المدينة جزائريين(10).

ويرى أن سكان المدينة شجعان واجتماعيون، وأوفياء للعهود، وكرماء وبسطاء في نمط حياتهم ونظيفون في منازلهم، وصناعيون وتجار، وإذا وضعوا ثقتهم في بعض فللابد، وإذا خدعهم أحد فيحذرون هذا الشخص بصفة دائمة.

ويجري البيع والشراء عندهم بدون عقد وبدون شهادة، وبكل أمانة ينفذون جميع التزاماتهم.

---

(10) أنظر حمدان بن عثمان خوجة: المرآت.
تعريب / محمد العربي الزبيري (ص 101 ـــ 102) ومما يجب ذكره أن حمدان بن عثمان خوجة ألف كتابه هذا في سنة 1833 بعيد الاحتلال بقليل، وضاعت النسخة العربية الأصلية، وبقيت نسخة تركية، ونسخة فرنسية وعنوان هذه النسخة الأخيرة: لمحة تاريخية وإحصائية حول أيالة الجزائر، وهو يشتمل على مجلدين، لم يصل الينا سوى الأول (أنظر تمهيد. د/ محمد العربي الزبيري، ص 44، عند تقديمه لكتاب المرآة المترجم الى العربية).

...ويوجد لدى الجزائريين (أي أهل المدينة) من المحاسن ما يجلب الانتباه، إنهم أوفياء لا يعرفون سرقة، ولا خيانة، ولا قتلا، ولا أي نوع من أنواع الجريمة، وعلى العموم فهم رجال شرف.

ومن شيمة الجزائريين أنهم حريصون وصادقون لا يعرفون الحقد والبغضاء، وهم كرماء في أعمالهم، يحترمون الجيران وكأنهم من الأقارب، وعلى الرغم من أن النساء المسلمات يحجبن عن الرجال الأباعد، فإن الأسر التي تنتمي الى الطبقات الفقيرة التي لا تستطيع أن تسكن وحدها، تجتمع في دار مشتركة على أن يخصص مسكن لكل عائلة ويبقى الرجال في معزل عن النساء[11] أما من حيث الطاقات الفكرية، فإن خيال الجزائريين خصب، وأفكارهم منظمة، إنهم يدركون الأمور بكيفية عجيبة، ولا يصعب عليهم أي عمل يدوي كان أم آلي، أوله علاقة بالعبقرية، إنهم يصنعون مختلف الأقمشة الحريرية والمحازم، يصدرونها الى المملكة المغربية، وتونس، وطرابلس وكامل أنحاء آسيا، ولهم كذلك معامل تصنع الألبسة المطروزة بالحرير التي تنال إعجاب الشرقيين وغيرهم من سكان الدول الأخرى.

وبالنسبة لمعظم هذه الحرف، فإن مدينة الجزائر هي التي تزود تونس وغيرها من المدن بالعمال.

وأما في الميدان الثقافي فإن الجزائريين يعتنون بالعلوم والآداب، ففيهم الشعراء، والأدباء، وأساتذة التاريخ والمشرعون.

وأجسام الجزائريين رشيقة، ذلك أن امتزاج العنصر التركي بالعنصر الأندلسي قد انتج عنصرا مختلطا من النوع الرفيع، الأمر الذي جعلنا لا نجد في مدينة الجزائر رجالا من ذوي العاهات أو المصابين بالأمراض المزمنة مثل النقرس وغيره، كما لا نجد فيها تلك الأمراض الكريهة، أو أمراض الجلد، وغيرها.

---

(11) نفس المصدر (ص 103).
(12) نفس المصدر (ص 105).

يهود الجزائر

أما اليهود فكانوا على مذهبين، فالتلموديون الذين كانوا منقسمين الى سلكين يسمونهم الأجانب «Fostareros» أو العجم والآخرون أي الأهالي البرابر فيدعون توشابينم «Résidents» أي المقيمين والمذهب كان هو مذهب السفارديم وبعض القرائين.

أما الاشكينازيم فلا وجود لهم في الجزائر، والسفارديم هم التلموديون والآخرون هم بنو قاريء، أي أصحاب التأويل الظاهرة للتوراة.

وكان لليهود شأن في الحياة الجزائرية، أخذت تزداد أهمية على مرّ الأيام، وقد أنضم العدد القليل من اليهود العرب أو اليهود الوطنيين منذ القرن الخامس عشر إخوانهم من يهود إسبانيا، وحدث أول استقرار لهؤلاء اليهود الأندلسيين في مدينة الجزائر عام 1391م، وقد سمح لهم خير الدين بالاقامة في مدينة الجزائر، ولكنه حدد لهم عدد الحوانيت التي يفتحونها، وفرض عليهم ضريبة، وقد تضاعف عددهم سريعا على الرغم من كل أنواع الاضطهاد التي لحقتهم من الترك والمغاربة، ومنها إكراههم على اتخاذ زي خاص بهم.

وقد ذكر هايدو أن مائة وخمسون أسرة يهودية لا أكثر كانت تسكن الجزائر في نهاية القرن السادس عشر، وقدر الآب دان عددهم في عام 1634 بعشرة آلاف يهودي.

ثم قدرهم لوجيه ده تاسي «Langier de Tassy» في عام 1725م بخمسة عشر الفا، ولا شك من أن هذا التقرير لم يخل من المبالغة وبدأ يظهر في ذلك الوقت الفرق الواضح بين اليهود الوطنيين الذين كانوا بائسين تساء معاملتهم، وبين اليهود الأوربيين الذين كانوا من أصل إيطالي، جاء أكثرهم من مدينة لقورنة وقد أفادوا بوصفهم أجانب من نظام الامتيازات ومن حماية القنصل الفرنسي، فأثروا من تجارتهم مع أوربا، ومن استغلال أنظمة الاحتكار، والربا، المحرم في الاسلام، وقد كان لأكثرهم نفوذا في القرن الثامن عشر. مثل سليمان جاكت (المتوفي عام 1725م) و بكري وبوجناح خاصة شأن خطير، بل كان لهم في

بعض الأحيان الشأن الأكبر في الشؤون الجزائرية (بعد أن أصبحوا يتولون أمور الداي المالية، ويقومون بالوساطة الرسمية بين الدولة الجزائرية وبين الدول الأوروبية. وقد تدخل نفتالي بوزناخ اليهودي في شؤون الدولة الجزائرية مما أدى الى ردّ فعل عنيف، إذ أغتال أحد الانكشارية نفتالي هذا عام 1805 وأعقبت ذلك فتنة دموية ذبح فيها أغنى أغنياء اليهود، فصودرت أملاكهم ونهبت حوانيتهم ونقص عدد اليهود بالجزائر الى أربعة آلاف يهودي.

الأوروبيون في المدينة

وكان الأوروبيون في مدينة الجزائر، أما عبيد أو تجارا أحرارا، أما العبيد فهم الذين أسرهم القراصنة، مع غنائمهم البحرية أو أثناء غاراتهم على شاطيء البحر المتوسط وخاصة على شواطيء إسبانيا، وإيطاليا، وكورسيكا، وسردينيا، وكان قسم من هؤلاء العبيد من نصيب البلشاوات أما الباقون فكانو يباعون لمن يدفع فيهم أغلى الأثمان، في موضع خاص بذلك، وكان الأسرى يعملون في المنازل، يستخدمون في المدينة نفسها أو في الحدائق خارج الأسوار (حسب مشيئة ساداتهم) وكانوا كذلك يسخرون في تسيير السفن الكبيرة بالمجاديف أياما معلومة وكانوا يحبسون ليلا في دور تابعة للحكومة، أو مملوكة للأفراد أما الأوروبيون الذين كانوا يتمتعون بحرية مطلقة، فقد كان عددهم دائما قليلا، وقد كانت في مدينة الجزائر جالية أوروبية صغيرة مكونة من مائة شخص على الأكثر، تتألف من القناصل، ومن بينهم قنصل انجليترا وفرنسا اللذان كانا يتنازعان الصدارة، ومن الموظفين في مكاتب القناصل وقليل من التجار.

مدينة الجزائر عاصمة الدولة نظامها السياسي في العهد العثماني

أن النظام السياسي الذي كان قائما في العهد العثماني نجد أن الوالي العام الجزائري كان يدعى الباشا أو الداي، وكانت ولاية الجزائر بحدودها

المعروفة الآن تتمتع باستقلال داخلي واسع، تحت سيادة الباب العالي الأسمية، فالأتراك في الجزائر هم الذين يشرفون لرتبة الباشوية، أحد قدماء الجنود، ثم يشعرون الباب العالي بذلك فيصادق على تسميته، والباشا يحكم بواسطة وزرائه، الجزائر وناحيتها، ويسمى البايات على المقاطعات الثلاث: مقاطعة قسنطينة، ومقاطعة تيطري وعاصمتها المدية، ومقاطعة وهران، ولكل باي من هؤلاء البايات تصرف واسع وسلطة كبيرة في حدود مقاطعته، وتكاد علاقاته مع باشا الجزائر تنحصر في أمرين: أولا مال الجبايات الذي يجب أن تدفعه المقاطعة للخزينة العامة وثانيا الجندية[1]؛

وكان للباشا في مدينة الجزائر عاصمة الايالة مجلس وزراء لا يقطع الباشا أمرا بدون استشارته، وأخذ رأيه ويتألف من ستة أشخاص:

1 — خوجة الخيل، وهو وزير الحرب والناظر على أملاك الدولة.
2 — وكيل الخرج، وهو وزير البحر والتموين والناظر على أعمال جهاد البحر وغنائمه القرصنة.
3 — الخزناجي، وزير المال وضابط حسابات الدولة.
4 — الاغا وهو القائد العام للجيش البري.
5 — القبودان رايس، وهو القائد العام لجند البحر.
6 — الباش كاتب، وهو رئيس ديوان الانشاء.

ويجتمع مع هذا المجلس كبار رجال الدين قضاة ومفتيين وأئمة ونقيب الاشراف، والى جانب هذا المجلس الحكومي الذي ينظر في المصالح العامة كان يوجد مجلس الديوان العسكري، وفيه رؤساء الجنود، وله تأثير عظيم على الحياة العامة، بحيث أنه لا يكاد يتسلم كرسي الباشوية، إلا من قدمه الديوان إليه، وكذلك مجلس (الرياس) أو الطائفة بجمع قواد البحر، ورؤساء المراكب الجهادية، ولهذا المجلس أيضا نفوذ كبير.

---

(1) ... 1984 طبعة جديدة.

أما إقامة قسطاس العدل بين الناس، فقد كانت من خصائص القاضي
الكبير، وهو من علماء الترك يقدم من الأستانة، وتحت نظره القضاة المنبثون
في كل أنحاء البلاد، منهم التركي، ومنهم العربي، ومنهم البربري ويقوم في الجزائر
مجلس القضاء الأعلى، فيه قاضي القضاة، والمفتون، والقضاة من مذهبي المالكية
والحنفية ووظيفة هذا المجلس إعادة النظر في أحكام القضايا الكبرى، ويكون بمثابة
محكمة النقض والابرام[14].

كانت في الجزائر طبقة العلماء ممتازة محترمة الجانب موفورة الكرامة ولم
يرو التاريخ أن علماء المسلمين في هذه البلاد أهينوا أو مسوا في كرامتهم أو
نالهم أي أذى من رجال السلطة التركية، بل كان رجال السلطة بعكس ذلك
يتملقونهم ويستجلبونهم اليهم ويخضعون بأسهم ويسمعون نصائحهم وبها يعظون.

وكان النظام البلدي موجود في الجزائر قبل الاحتلال التركي، وبقي أثناء
الاحتلال قائما وانتظم شأنه، فرياس المدينة «شيخ البلد» ويكون غالبا عين أعيانها،
وله مجلس يختاره من أعيان البلاد، وهو مجلس الحرف والصنائع يشمل أمناء
الصنائع والحرف المختلفة.

يحدد معهم أسعار المواد الضرورية، حتى لا تقع العامة ضحية إحتكار
التجار وتحت نظره أمور الحرف والصنائع، والبث فيما يقع من خلاف بين
أصحابها، وكانت أعمال البحر في الجزائر صناعة وطنية، إنما كانت لها نظم
وقوانين لا تتعداها بينما كانت قرصنة البرتغاليين مثلا لا تعرف الخضوع لقانون
ولا تتقيد بنظام[15].

فكانت الدول التي لها قناصل بالجزائر تتمتع بالحرية البحرية ولا ينالها
من المراكب الجزائرية أي أذى وتدفع مقابل ذلك أداء معلوما سنويا للباشا،

---

(14) نفس المصدر ــ ص 38.

(15) نفس المصدر ــ ص 38.

أما الدول الأخرى فقد كانت تعتبر في حالة حرب دائما، تتقاتل مع المراكب الجزائرية حيثما التقتا، ويكون المغلوب ملكا للغالب، وقد كانت الجزائر تغص أحيانا بأفواج الأساري المسيحيين، فكان أهل المدينة من أتراك ووطنيين يحسنون معاملة أولئك الأسرى أي إحسان ويسمحون لهم بإقامة شعائرهم الدينية علنا، في الوقت الذي كانت فيه إسبانيا لم تكد تفرغ من إحراق اليهود والمسلمين أحياء وقد روى أولئك الأساري في رسائلهم المحفوظة في كتب التاريخ، إن أهل المدينة، كانوا يأتون اليهم في أيام عيد الفصح «الباك» بالزرابي البديعة وأدوات الزينة وبعض الأطعمة الفاخرة، ليقوموا بعيدهم الديني خير القيام وينسوا في ذلك اليوم ماهم عليه من الأسر، وكانوا يخترقون المدينة في موكب ديني ومعهم الرهبان والصلبان، فكانوا يتمتعون يومئذ في بلاد الاسلام بحرية دينية لا تتمتع بها كثير من الطوائف المسيحية في بلاد أوروبا النصرانية، وطالما اعتنق منهم عدد غير يسير الاسلام، وفضلوا البقاء في الجزائر على الرجوع لبلادهم.

حاربت الدول الأوربية الجزائر، واندحرت أمامها المرات العديدة، ولقد انكسرت الجنود الاسبانية أمام الجزائر أشنع كسرة، وغنم الجزائريون كل ما أتت به الحطة من سلاح وعدد وأعادوا الكرة فانكسروا.

وقدمت عدّة أساطيل ورمت القنابل على الجزائر من غير جدوى، لأن مدينة الجزائر، كانت يومئذ أعظم مدينة حصينة بالبحر المتوسط كله وبها من المدافع الضخمة ما يفوق في رميه وقوته مدافع أوروبا، وكان الأسطول الجزائري مؤلفا من 72 قطعة بحرية بكل منها 40 مدفعا ونحو 140 سفينة من ذات العشرين مدفعا فما دون، وكان عدد البحارة يبلغ نحو الثلاثين ألفا أغلبهم من أبناء البلاد، ونالت مدينة الجزائر بواسطة الغزوات البحرية ثروة ورفاهية.

وكانت الجزائر في ظل العهد العثماني. طيلة ثلاثة قرون تنال احترام وتقدير الدول الغربية. وأخضعت الجزائر ثلاثة أرباع أوربا وكذلك الولايات المتحدة الأميريكية لمهانة الضريبة السنوية. وكانت الدول البحرية الغربية (أو النصرانية كما يحبذ تسميتها السيد مولود قاسم) تجد نفسها ملزمة بإشتراء المدنة من الجزائريين بين الحين والآخر.

وكانت أمريكا، وهولاندا، والبرتغال،ونابولي والسويد، والنرويج والدانمارك، و تدفع للجزائر ضريبة كل سنتين بل إن السويد، والدانمارك، والنرويج كانت تزود الجزائر، بدون مقابل زيادة عن الضريبة، بالأسلحة،والأسلاك، والأعمدة، وجرائد الارسال، والبارود، والقنابل[16].

أما الدول الألمانية: هانوفر، وهامبورغ، وبريمن، فقد كانت تقدم العتاد البحري والحربي، هذا كله فضلا عما تقدمه جميع أصناف هذه الدول من هدايا لدى عقد معاهدات وتغيير قناصل، وغيرها من المناسبات.

والدولتان الوحيدتان اللتان لم تكونا تدفعان، هما النمسا وروسيا، نظرا لجوارنا للباب العالي، ولكن ذلك جر عليها شرا مستطيرا. فكان الأسرى النمسوون وخاصة الأسرى الروس بأعداد كبيرة في سجون الجزائر.

وكانت الدولة الغربية تدفع الهدايا للحكومة الجزائرية لتضمن الأمن لأساطيلها التجارية، ولذا نيلت جميع دول أوربا بأداء ضرائب سنوية.

أما فرنسا بفضل علاقاتها القديمة مع الباب العالي، ولم تفرض عليها تسعيرة خاصة، ومع ذلك كانت تبعث بمناسبة إرسال كل قنصل جديد الى الجزائر بهدايا ثمينة الى الدولة الجزائرية مع رسائل إعتماد القنصل حتى يحظى بالقبول[17] وكانت بريطانيا رغم «غرورها» تدفع أيضا مبالغ طائلة الى الجزائر.

وسارت على نفس المنوال الدول الألمانية مثل هامبورغ،[18] وبريمن، وهانوفر، ودول إيطاليا، حتى روما نفسها، وإسبانيا، و النمسا، وهولندا. أما

---

(16) مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 ج1 ص 77، 78.

(17) نفس المصدر ص 78.

(18) نفس المصدر 78 (هذا مع العلم أن السيد مولود قاسم اعتمد في معلوماته الخاصة بالهدايا والضرائب التي تدفعها الدول الغربية الى الجزائر على Xavier Bardon: histoire Nationale de l'Algérie P.117-118.

السويد، والدانمارك والبرتغال والولايات المتحدة الأمريكية فقد كانت تدفع هدايا، ثم ضريبة سنوية ضخمة لخزينة الجزائر، مما جعل هذه الخزينة أغنى خزينة في العالم.

إدارة المدينة في العهد العثماني

وكانت مدينة الجزائر أثناء العهد التركي، تصرف شؤونها إدارة مستقلة، ويشرف عليها الخزنجي، أو وزير مالية الامارة.

وكان لكل طائفة موجودة في المدينة كالمزابيين والزنوج أمين، أما اليهود فكانوا يمثلون «كتلة» يحكمها زعيم يختارونه منهم، وكان الأمناء كلهم يخضعون لسلطان شيخ البلد.

وكان التفتيش على الأسواق منوطا بالمحتسب، أما أعمال «الكخية» فهو مراقبة الشوارع أثناء النهار.

أما مراقبة الشوارع أثناء الليل، وتفتيشها فكان من أعمال «آغا الكل» أما «المزوار» فكان عليه أن يراقب الحمامات وبيوت المدينة، وكان على «أمين العيون» أن يحافظ على عيون الماء ويتأكد من سلامة أبنيتها وكان هذا النظام الاداري يفي بالأغراض المرجوة منه، ويحفظ الأمن والنظام على أحسن حال.

لغات الكلام في مدينة الجزائر

أما اللغات التي كان يتكلم بها أهل مدينة الجزائر (أي في العهد العثماني فهي العربية، والبربرية، والتركية، وبرطانة هي مزيج من الفرنسية والاسبانية والايطالية، كما أخبر بذلك الراهب «DAN» وكانوا يسمونها الافرنجية وهي لا تعرف القواعد النحوية، كما أنها تتكون من كلمات في منتهى البساطة عبارة عن مصادر لغات مختلفة، تستعمل لجميع الأشخاص ولكل الأزمنة، وأسماء وصفات فرنسية، وإيطالية، وإسبانية، لا تعرف غير صفة الفاعل المرفوع، وعدد من الحروف، والضمائر، وحروف النداء، تصلح لأن تكون نباحا إنسانيا أكثر من

صلاحيتها لأن تكون قسما من أقسام لغة من اللغات. وعلى الرغم من أن هذه الرطانة مضحكة فإن لها تاريخها الخاص بها فعندما زار بعض أفراد الطائفة التبشيرية المسيحية التي تدعى «ترينيتير» السواحل الجزائرية قبل قرون، وجدوا هذه اللغة شائعة الاستعمال[19].

ولعلها كانت قد أتخذت في أوائل القرون الوسطى وسيلة للتفاهم بين التجار الايطاليين، والاسبانيين، والفرنسيين وبين الجزائريين[20] على كل حال فقد كانت اللغة العربية، هي لغة الكلام لدى الشعب الجزائري إبان العهد العثماني في الجزائر، بل كانت هي اللغة السائدة في الأوساط العامة منها اللغة التركية فكان دورها كلغة مراسلات بين الادارة التركية الجزائرية والباب العالي، وكانت تستعمل بصفة ضئيلة في بعض الوظائف الرسمية داخل الدولة الجزائرية لأن حتى الدايات أنفسهم كانوا يخاطبون ويتعاملون مع الشعب الجزائري باللغة العربية لا التركية.

---

(19) انظر هاينريش فون مالتسان في مذكراته: عنوانها ثلاث سنوات في شمال غرب افريقيا (ج 1 ص 89).

(20) لأخذ فكرة عن هذه اللغة أورد حادثة جرت بين هاينريش فون مالتسان وبين شيخ جزائري يعمل كمعلم في حوالي منتصف القرن التاسع عشر مع العلم أن هاينريش كان شاعرا وكاتبا روائيا وتعلم اللهجة المحلية الجزائرية مما سهل له الاتصال بمختلف الشخصيات الجزائرية. (نفس المصدر. ص 89)
أما عن اللغة الأفرنجية هذه فيقول مالتسان أن الحادثة التي جرت بينه وبين الشيخ الجزائري تعطي صورة عن طبيعة هذه اللغة وكانت على الوجه التالي:

— أنا أريد تعلم العربية Mi voular a pirndre arabe

— أنا أعطي درسا لك Moi donar a toi leçon

— كداش الدرس Keddach leçon

فرد على المعلم بنفس اللغة

— نصف دورو Mizzo doro

ومما يستحق ذكره أن موليير قد عرف جوانب اللغة الأفرنجية الفصحة، فسجل للأجيال المتأخرة معارفه عن هذه الرطانة في طياته «المثري النبيل» خلدها في أبيات شعرية على لسان مفتي:

— إذا أنت عرف... Si ti Sabir

— أنت جاب... Ti respondir

— إذ ما عرف.. Se non Sabir

— سكت سكت... Tazir Tazir

حضارة مدينة الجزائر

حياة مجتمع المدينة
إبان العصر العثماني

كانت الحياة الاجتماعية لأهل مدينة الجزائر لها طابعها ومميزاتها الخاصة إبان العهد العثماني، ونستطيع أن نلمس عن كثب عادات وتقاليد، وأنماط العيش لدى مجتمع المدينة من خلال الحفلات والأعراس والمآدب، والمقاهي، ومرتاديها، وكذا الحمامات، كل ذلك يمدنا بمعلومات هامة عن حياة المجتمع بكل سهولة ويسر.

حمامات المدينة

والحمامات مثلا في مدينة الجزائر، كان لها أغراض اجتماعية هامة، زيادة على عملها التنظيفي، والمصادر المائية لمدينة الجزائر، كانت كافية لتزويدها بالمياه المستمرة الجريان لأنابيب الحمام، وكذا لسدّ حاجة نسبة كبيرة من سكان المدينة، وقد كان الحمام هو المكان الذي يتنظف الجزائريون فيه دينيا وصحيا.

ففيه يلتقي الرجال والنساء الحضر كل في قسمه المنفصل أو حجراته، وفيه يتفق على الزواج أو بداية مبادرته الأولى، وفيه يتحدث عن مراسيم الدفن، وتحمل الأعمال التجارية الى مرحلة الاتفاق، وفيه تحكى الحوادث العائلية بين الأصدقاء[1].

---

(1) أنظر دراسة نشرت في كتاب بقلم: وليم سبنسر الجزائر في عهد رياس البحر (تعريب وتعليق د: عبد القادر زبادية) ص 95 ــ الجزائر 1980.

لقد كان هناك من الحمامات حوالي ستين في أيام هايدو وكانت بناياتها[2]. واسعة ونظيفة مضاءة من السقف ومجهزة بالماء البارد والمسخن ويدخل المستحم فيدفع أجره بورقتين إثنتين ثم يضع ثيابه في غرفة خارجية واسعة، ومنها يمر عاريا الى حجرة أخرى عريضة قد قسمت الى مكعبات تتسع كل منها لأشخاص يتراوح عددهم بين عشرة الى اثنى عشر.

وفي كل مكعب يمر الماء المسخن عبر أنابيب البرونز المقامة على الحيطان والمعممة لسحابات البخار، ويمر المستحم عبر بخار تزداد حرارته شيئا فشيئا حتى يصل ما يسمى بالسكاك أوداسي SICAK odasi، الكاليداريوم calidarium لدى الرومان وهناك يمتد على أزائك من القطيفة تغمرها سحابات من البخار الساخن المعبأ بالرائحة الزكية، ويتدبر بفكره في عجائب الحياة الدنيا وبعد استراحته في هذه الوضعية الباعثة على النوم ولعدة دقائق يظهر اثنان من المزميتسر أي الخدام الأقوياء فيمطعطون من جنباته حتى تتطرطق جميع مفاصله، ويقلبونه كالخبز الناعم، ثم يحكون من على جسمه بقفازات لا ظفر لها، فيخرجون أكثر من الرطل زبعد عودة المستحم الى غرفة الملابس، يتناول كوبا من (الشربات) يمده بها خادم، وبعد أن يمح عليه عون آخر بماء الزهر يلبس ثيابه، ثم يغادر المكان ودمه يسير في دورة غير عادية من الحيوية ويحيط به شعور عام من النشاط يسرى في كل جسمه المبعث بحيوية جديدة.

ولقد كانت حمامات النساء تشبه حمامات الرجال، ولكن الاجراءات كانت أكثر طراوة. الزبونات كان أمامهن وقت أكثر ومناسبات أقل للتجمع مع الأصدقاء

---

(2) أنظر دراسات نشرت في المجلة الافريقية عن أعمال هايدو، وذلك بعد ترجمتها الى الفرنسية: Haëdo, Topografia e historia general 1612 Traduction Berbrugger et Monnereau dans Revue Africaine - 14-15.

ولقد ألف هايدو كتابه في أوائل القرن السابع عشر عام 1812م وقد سبق لي ذكرت تاريخ نشر الكتاب آنفا.

فبعد أن تنجز السيدات مختلف مراحل البخار في الحمام ذاته يقمن الخادمات بغسلهن من الرأس الى القدم مستعملين ماء الزهر ويمخون عليهن المسك والعطور الأخرى.

وبعد هذا يزيّنّ حواجبهن ثم يلبسن ثيابهن التي تكون قد علقت من البداية في معالق تحتوي على أريج عود القمار المشتعل وتنتظرهن في غرفة اللابس ليس فقط (الشربت) ولكن الفاكهة والجوز وحلويات أخرى تشمل الحلوى المفضلة لدى الترك (الحلقوم) ونوعا من حلوة أصابع العروس[3].

كما تقوم المؤسسة أيضا بتهيئة جو موسيقى، وتحضير فتيات للرقص وفي هذا الجو البهيج تقضي السيدات الجزائريات يوما من أيام الأسبوع أما الزواج في مدينة الجزائر، فكان له دستوره الهام، فهو يجمع عناصر الترفيه، والسياسة، والسلوك الاجتماعي الخاص، والعرف والتقاليد والاقتصاد، واستمرارية الارتباط العرقي.

وهناك ظاهرة كانت شائعة في خصوص العرف الزواجي[4] بمدينة الجزائر المتمثل في التوسط، ويتم عادة عن طريق امرأة مسنة صديقة لعائلة زوج أو زوجة المستقبل.

وفتيات الجزائر كنّ يبلغن سنّ النضج عند اثنى عشرة وثلاثة عشرة سنة، ونظرا للسرية العامة المتعلقة بالانثى، فإن المتوسطات كنّ يقمن بعمل ذي قيمة.

المقاهي العربية

أما المظهر الآخر من الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر، فيتجلى في المقاهي العربية، التي كانت موجودة في العهد التركي، ثم بعد الاحتلال الفرنسي

---

(3) أنظر وليم سبنسر الجزائر في عهد رياس البحر — ص 96.

(4) أود أن أذكّر أن ظاهرة التوسط مازالت موجودة في مدينة الجزائر وغيرها من المدن الجزائرية.

البغيظ للمدينة، وحسب الرحالة الألماني فاغنر، الذي زار مدينة الجزائر ما بين (1835 ـ 1836) وكتب عن رحلته الميمونة هذه، فقال: إن عدد المقاهي العربية، كان يزيد عن الستين في القسم الأعلى من المدينة.

ويذكر أنه كان يقضي كل أمسية في واحدة منها دون أن يندم على الوقت الذي قضاه فيها أبدا.

وتعتبر المقاهي من الأماكن التي تتيح للأجنبي أن يتعرف على الشعب ويتعلم لغته، بل لا يوجد بالنسبة له مكان يتعلم فيه التعبير الشعبية مثلما يتعلمها في المقاهي[5].

ويشير الى أن الأهالي لا يتحدثون فيها كثيرا، ومن هنا يستطيع الانسان أن يدرس ملامح رواد المقاهي، وهم جالسون فوق الأرض، فيرى الحضري الهادي، جالسا قرب التركي في لباسه الفخم، ويليه زنجي أسود كالقار، يرتدي نفس اللباس، وبعده عربي من البادية، طويل القامة جميل المظهر، وقد لوحت الشمس بشرته، يغطي عضلاته الفولاذية برداء، صوفي أبيض، وفوق رأسه عمامة، يلتف بها حبل من شعر الجمل وغير بعيد منه قبائلي بقامته القصيرة، ونظراته الثاقبة، ثم ميزابي من الصحراء، وبسكري من بلاد الجريد، وبينهم فرنسي في لباسه الرسمي، وقد تعود على حضور جميع الحفلات، وأخذ يظهر جوانب من مزاجة المرح في كل مكان.

ويقع أجمل مقهى عربي في شارع البحرية، وبه قاعة مقسمة الى مقصورات تستند على أعمدة، وتتسع لعدد كبير من الزوار. ويضيف فاغنر أنه شاهد مقهى من هذا النوع، في أواخر سنة 1836، ولكنه أضيق، وكانت تقع في شارع لالاهم، وقد أصبح كلاهما أثر بعد عين، فقد اشتراها الأوروبيون

(5) أنظر دراسة مترجمة من الألمانية الى العربية، بقلم: أبو العيد دودو تحت عنوان: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (ص 63).

وأقاموا مكانها بنايات على الطراز الفرنسي، وقضوا في مقابل ذلك على جانب كبير من صالتها الشرقية، فليس هناك اليوم مقهى واحد يشبه المقاهي القديمة[4].

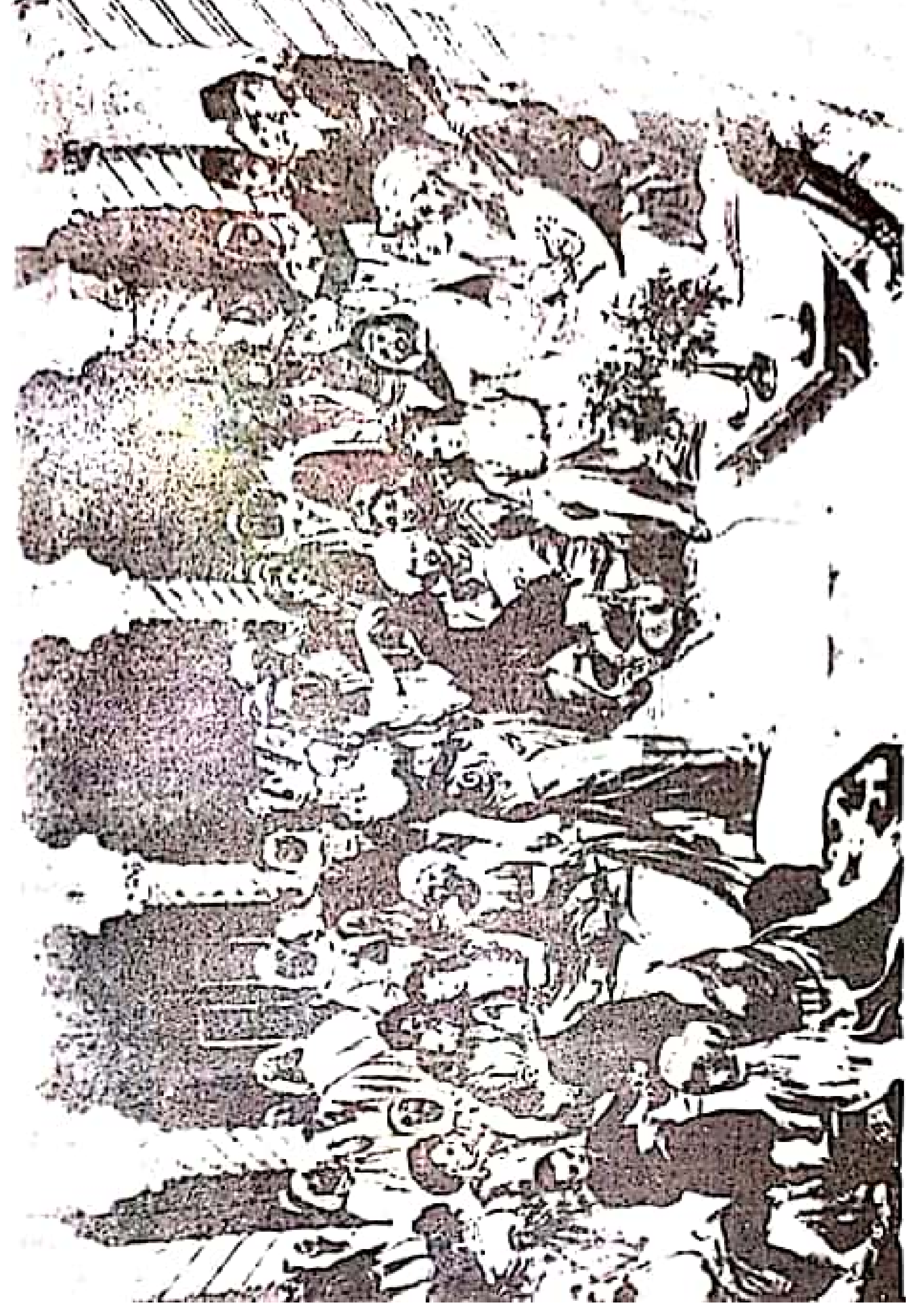
فالمقاهي التي عاصرها فاغنر أدخلت عليها تعديلات من حيث الشكل، فهي مستطيلة وتغطيها حصائر من سعف النخيل، ويجلس فوقها الرواد على الطريقة الشرقية، ويقع المطبخ في منخفض بمؤخرة المحل، وتقدم القهوة في فناجين مصنوعة من الخزف فوق صحون من الصفيح، ويجلس صاحب المقهى عند المدخل في وقار، دون أن يهتم بمحله الكبير، ويستقبل الزائر الأوروبي قائلا: «مساء الخير يا سيدي» وأخاه في الدين: «وعليكم السلام» ثم ينادي في اتجاه القبو «جب قهوة — جب سبسي !» والطباخ من السود عادة، أما النذل فهم من أبناء الحضر، ووجوههم شديدة البياض موردة، وفوق رؤوسهم الحليقة، فلابسهم.ألبستهم في الأماكن التي يكثر فيها الرواد نظيفة، وفاخرة في بعض الأحيان، ولا تتجاوز أعمارهم السادسة عشر، وقد تركت الأعمال اليدوية آثارها على ملامح البعض منهم.

الأنس والطرب في المقاهي العربية

ولا تخلو المقاهي الكبيرة من الموسيقى في أي يوم من أيام الأسبوع ومكان الجوقة في العادة قرب المطبخ، مما يجعل أعضاءها ينظرون الى القدور التي يتصاعد منها البخار، ويستمدون منه الحماس، وتتكون الآلات التي يستعملها الفنانون الجزائريون من الرباب، والنايات، والقيثارات المختلفة والطار، غير أن الأخير يستعمل في الحفلات التي تقام في الهواء الطلق أكثر مما يستعمل في المقاهي، وتخلو هذه كذلك من الطنبور، والموسيقى الصاخبة الخاصة بالأعراس، وحفلات شهر رمضان.

---

(4) وفاغنر يعني هنا المرحلة التاريخية التي قام أثناءها بزيارة مدينة الجزائر ما بين: 1835 — 1836م. ولا بد من الاشارة أنه رغم القضاء على جزء كبير من المعالم الشرقية للمقاهي العربية من قبل المحتل الفرنسي، فإن المقاهي العربية بقيت محافظة على جو المرح والروح الاجتماعية الموجودة لدى روادها.



Scanné avec CamScanner

فرواد المقاهي يفضلون الاستماع الى الموسيقى الرتيبة الهادئة التي تدغدغ حواسهم، وتناسب الأحلام التي يستسلمون اليها في لذة. وينفرون من الأنغام القوية التي تذكرهم بقعقعات السلاح وبطولات[7] الأجداد.

ويقع أكثر المقاهي العربية روادا في شارع الديوان قرب مسجد كتشاوة ويتردد عليه كثير من الأوروبيين، فالقهوة فيه ممتازة.

والمجلس شيق، والجوقة كبيرة، وقائد الفرقة عربي عجوز، وهو عازف بارع على الربابة، يشد الانظار اليه بغرامة تمثيله الصامت واهتزازات رأسه، وحركاته الرزينة الرتيبة، وكان في الماضي أحد أعضاء الفرقة الخاصة بالداي الأخير، ويمارس العزف في الأعراس الجزائرية التي تفتح له أبوابها باستمرار ليسمعها أنغامه اللطيفة، وصاحب المقهى فهو أخو إبراهيم شاوش، جلاد الداي ويتمتع مثله بمكانة مرموقة عند الحضر.

والحفلات التي تقام في مقهى القسم الأعلى من المدينة أكثر أصالة وصخبا، خاصة ما يقع منها قرب القصبة، فهناك يقع المقهى اليوناني، الذي يحاول صاحبه أغراء جمهوره بأحقر الوسائل فترى الأهالي وكثيرا ما يختلط بهم الأوروبيون، يصخبون فيه ويصرخون مع الموسيقى الصاخبة، دون فارق ديني أو عنصري، فيجتمع المسلم والمسيحي، واليهودي، والأوربي، والأفريقي في أكثر الأماكن عربدة وتمتزج تلك الأصوات كلها بأصوات النساء اللواتي يتبادلن الحديث مع عدد من رواد المقاهي.

حياة الطرب في مدينة الجزائر

من العادات الجميلة التي لها صبغة شاعرية مؤثرة رقصة عربية تدعى «النية»، التي كانت سائدة في مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي البغيض وبعده، بقليل وتقوم بأدائها راقصات جزائريات مع جوق موسيقي، فوق فراش

---

(7) نفس المصدر د. دودو. الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (ص65).

على الأرض في بيت عربي تقليدي بالقصبة فتقع الحلقة بعد جمع دزينة من المشاهدين الكائنين لاقامة حفلة خاصة وكل واحد من رواد النبيتة، عليه أن يدفع مبلغا كبيرا من المال من أجل مشاهدة الحفل.

وكانت الراقصات يرقصن والجميلات يتمددن على شكل دائرة مفتوحة وتقدم القهوة والنرجيلة للنساء، وكانت المسامع أنغام حزينة تحرك رغم رتابتها أوتار القلوب، فهي أنغام لطيفة عذبة هادئة دائما لا يقطعها صوت عال أبدا[8].

وكانت الأنغام تعلو وتنسجم انسجاما تاما، ولكنها بمجرد أن تصل ال النقطة التي ترتفع عندها، لتعود رتابتها القديمة.

فقد كانت رتيبة، إذ لم يكن هناك سوى ثلاث أو أربع نغمات تنطلق من لحن واحد وتتاوب باستمرار ومع ذلك فقد كانت لهذه الموسيقى فتنتها.

إنه وصف حي لأمسية موسيقية جزائرية في الحي العربي بالقصبة تعبر هذه الطريقة عن مدى تعلق الجزائريين بحضارتهم وثقافتهم وما الموسيقى إلا لون من هذه الحضارة الأصيلة.

وأهل الحضر في مدينة الجزائر، كانت لهم حضارة عربية، وتقاليد، وعادات حاول الفرنسيون القضاء عليها، ولكن هيهات، فلم يفلحوا وكثير من الحضر في مدينة الجزائر كانوا يكسبون رزقهم عن طريق التجارة والبعض الآخر يمارس الأعمال اليدوية، فهناك صناعات كثيرة خاصة بهم، ولا توجد لدى

---

(8) أنظر هاينريش فون مالتسان (ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا) ترجمة د. أبو العيد دودو- ص 63ـ64.

وقد قام هذا الرحالة الألماني الذي هو من أصل انجليزي بزيارة لمدينة الجزائر في (سنة 1851 ـ 1852م) مكث فيها مدة تعلم أثناءها اللغة الدارجة الجزائرية ووصف مازاره في رحلته.

الأوربيين إلا على نمط آخر فالحرار هو الذي يصنع تلك الأحزمة الجزائرية الجميلة، والقصاص يستعمل الحرير أيضا، ولكنه يصنع شرائط الغلائل والدعيات العربية.

أما الحلاجي فيطرز بالذهب ويصنع على الأخص النعال المخملية التسوية بينما يقتصر السراج على تطريز الجلد بالذهب ويصنع «القاوقجي» طاقيات النساء من المخمل القاني ويطرزها بالأسلاك الذهبية ويرتديها عادة الحضريات واليهوديات بل حتى البدويات والقبائليات[9] ويمتاز «السلوبجي» من بين الذين يعرضون المشروبات الجزائرية الأصيلة للبيع، فإنه يعد مشروبا لا يعرفه الأوربيون بالمرة، ويعرضه للبيع ويدعى «سلوب»[10] وهو مشروب يغلى من الشعير المتخمر قليلا والمخضر معروفون به، ولا يشرب تقريبا إلا في الصباح، وذلك في ساعة مبكرة، ويقبل الناس على شربه في الشتاء بكثرة لأنهم ينسبون اليه خصائص مدفئة.

وجميع هؤلاء الصناع العرب (في المنتصف الأول من القرن التاسع عشر) لا يكسبون كثيرا وأحسن عامل لا يزيد دخله اليومي عن فرنكين إثنين أما مدخول أغلبهم فيصل الى فرنك واحد أو دون ذلك، ومع هذا فإن الجزائري يفضل أن يكون صانعا.

ويوجد بينهم عدد كبير ممن يستخدمون الجلد في أعمالهم، فيصنعون الأحذية والسروج ويوزعونها في جميع أنحاء البلاد، ويجلس الصانع في المقدمة وحوله عدد من المتعلمين.

ونشأت في مجتمع الجزائر في العهد العثماني «المدينة لا القطر» عادات ومناسبات للاحتفال بالأعياد للتسلية فكان يجرى مثلا في شهر رمضان عادت ختم صحيح البخاري في المساجد وإضاءة الشموع فيها وفي غيرها وهذه من

(9) أنظر هاينريش فون مالتسان (ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا) ص65 ـ تعريب الدكتور: أبو العيد دودو.

(10) أنظر: هاينريش فون مالتسان (ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا) صفحة 65 ـ تعريب الدكتور: أبو العيد دودو.

الشعائر الدينية التي تقام في المدينة وأهم ظاهرة في هذا الشهر هي أن المدينة تسهر خلافا لسائر الشهور فقد جرت العادة أن لا يخرج أحد من داره من غروب الشمس الى شروقها وكانت المدينة تغلق أبوابها فلا ترى أحدا يمشي في الشارع ليلا أما في رمضان فالجميع يخرجون ويسهرون حتى النساء اللاتي كن يخرجن سافرات متخذات من الليل حجابا، ولكن المرأة لا تخرج وحدها في هذه المناسبة. وهناك ألعاب كانت تجري يوم عيد الأضحى من ذلك الألعاب البهلوانية التي تشبه المصارعة والتي كانت تجري يوم الجمعة أيضا، وهي لعبة لم تكن خاصة بمدينة الجزائر بل كان يمارسها الناس وخصوصا الأتراك في معظم مدن القطر أما في العاصمة فقد كان يحضرها يوم عيد الأضحى الباشا أو الداي وكبار رجال الدولة.

وخلاصتها أن أشهر اللاعبين يتقدمون زوجين في حوالي عشرة أزواج ويصعدون على الحلبة المعدة لذلك ويجلس الداي وأعوانه على زرابي حول الحلبة ثم يشرع اللاعبون في مصارعتهم القائمة على خفة الحركة والمهارة في الغلبة وإظهار القوة كل إثنين يأخذان فترة من الوقت وكذا أن ينتهي مجموع اللاعبين وبعد ذلك يمنح الداي بعض النقود لكل وحد منهم ولم تكن اللعبة البهلوانية أو لعبه المصارعة خاصة بيوم عيد الأضحى بل كانت تجري كل يوم جمعة غير أن الباشا أو الداي لا يحضرها إلا في المناسبة الأولى أما أشهر اللاعبين فكانوا لا يلعبون إلا في عيد الأضحى وكان ليوم الجمعة مظهره الخاص ففيه تغلق المدينة أبوابها عند الصلاة كما تغلق جميع الدكاكين نوافذها ومعظم التجار لا يعودون لفتح الدكاكين بعد الصلاة بل يذهبون في نزهات خاصة مع أهلهم أو يخرجون الى بساتينهم القريبة أو يزورون بعضهم البعض أما النساء فقد كنّ يتوجهن منذ الصباح الباكر الى المقابر لزيارة موتاهم وقد كانت حفلات تسلي الناس وتدفع عنهم الضجر مثل مسرح القراقوز الذي أدخله الأتراك ومن ذلك أيضا حلقات إنشاء الشعر الشعبي حيث يقوم المداحون بقص السير، والأخبار، ومغامرات الأبطال والفرسان وقد شاع في الجزائر عندئذ شرب القهوة بكثرة ومضغ الدخان وتدخينه في السبسي أو الغليون ولم يكن شرب الخمر شائعا عند الطبقات العالية ولا ذوي الشأن والعلم لأنه حرام ولأنه لا يليق بالمقام.

ألوان الطعام في مدينة الجزائر
إبان العهد العثماني

وكان أهل الحضر يحسنون طبخ ألوان كثير من الطعام، ويمكن أن نطلع على نوعية هذه الأكل من خلال ما كان يقدم الى المدير العام للبحرية أثناء العهد العثماني (في أواخر القرن الثامن عشر)، فكان مدير البحرية هذا مثلا، يتلقى في الصباح وجبة خفيفة من زوجته متى كان متزوجا، ويشاركه فيها عادة نائب مدير السجن والخوجة التركي.

وبين الساعة العاشرة والحادية عشر تصله أطباق النحاس المطلي جدا بالقصدير، مغطاة بأطباق أخرى، مليئة باللحم المحمر، والمغلي ولحم الطيور، والكسكسي الذي يطبخ عادة بدجاج مقطوع الأطراف وفي كل يوم يحضر صحن كبير من الشربة مع كوز كبير من اللبن من قصر الداي، ونفس الكمية وأكثر من منزله الخاص، ويضاف الى ذلك كمية كبيرة من أجود أنواع السمك الذي يقدمه اليه صيادوا السمك هدية ولكن «الفيكلهارش» يدفع ثمنه بسخاء، ويتولى طبخه العبيد الذين يعملون في السقيفة، وهذه المأكولات بالاضافة الى خبز من النوع الممتاز، هي التي تشكل الغذاء اليومي الذي يدعي اليه الأمير، وقبطان الميناء، والرايس المحظوظ وغير هؤلاء من الأصدقاء الذين تأتي بهم الصدفة.

ومتى تجاوز عدد الضيوف خمسة أو ستة، تنازل الخوجة التركي عن عقده للغريب، ويأكل هو بعدما ينتهون من الغذاء برفقة الموظف والكتاب العرب ورئيس الصيادين.

أما فواكه الموسم فترسل الى هذه المائدة من قصر الداي ومن منزل المدير العام معا[11].

---

(11) أنظر مذكرات أسير الداي (كاثكارت) قنصل أمريكا في المغرب ـــ ترجمها عن الانجليزية ـــ الأستاذ إسماعيل العربي ـــ ص 72.

والفرق الوحيد بين منازل الأغنياء وغيرهم هو أن هؤلاء يتناولون الطعام في غرف جميلة ويستعملون نوعا من المنضدة ذات ثمانية أرجل مصنوعة من أرفع أنواع الخشب ومطعمة بالصدف وترس السلحفاة يبلغ ارتفاعه نحو ثماني عشر بوصة.

يضعون عليها «السفرة» وهي عبارة عن صينية كبيرة مصنوعة من النحاس المقصدر، يوضع عليها الطعام، وبدلا من الجلوس على مقاعد وثيرة يجلسون متربعين على السجاد، متى كانوا من درجة واحدة.

وأما الذين يتناولون الطعام مع الداي، فهم مضطرون الى أن يركعوا ويجلسوا على سيقانهم ويتناولون الطعام والخبز يكسر قطعا صغيرة ويوضع أمام كل واحد من الضيوف مع الملعقة واللحم يقطع دائما شرائح قبل أن يطبخ والطيور تطبخ عادة بكاملها عندما تقدم للأكل تكون مطبوخة وناضجة بحيث تقطع أطرافها بسهولة ومن ثم فإن الجزائريين لا يحتاجون الى استعمال السكاكين والفرش مثلما هو معمول به عند الأوربيين.

والمائدة تغطى بقطعة من الموسلين تكون أطرافها مطرزة في كثير من الأحيان ويبلغ طولها عدة ياردات وتلف حول المنضدة بحيث لا تسقط أطرافها على الأرض، وبعدما يتم تجهيز كل شيء على هذا المنوال، يرسل في طلب الضيوف الذين يغسلون أيديهم قبل الشروع في الأكل.

وبعد ذلك تؤخذ المقاعد وتوضع بجنب الباب ويجلس الجماعة ويسدل الستار دونهم، ثم يقوم خادم مسيحي وعلى كتفه منديل نظيف بوضع الصحون على المائدة صحنا بعد صحن أمام كل واحد من الضيوف وينتظر الجميع حتى يبدأ رب الدار، ثم يقوم كل واحد منهم برفع طعامه بواسطة ملعقة الى صحنه، أوما اللحم، فيأخذه بيده.

يبدأ الجماعة أكلهم بالشربة ويعقبه اللحم المحمر، ثم السمك، متى كانت قائمة الطعام تشتمل على سمك، ويأتي الكسكس الذي هو الصحن الرئيسي في الأخير وبه تختم المائدة.

وعقبه تنظيف المائدة ثم توضع عليها الفواكه، ويتناولون الشربة بملعقة مصنوعة من ترس السلحفاة[12]، ويدها من العاج مزين بالعنبر والمرجان وأما الملاعق الصغيرة فهي مصنوعة من نفس المادة أو من خشب ثمين وتزين وتزخرف حسب ثروة مالكها...وهي تحضر من المشرق وتقدم هدايا، أو تكون بضائع للتبادل التجاري.

وعندما يشرب ربّ الدار أو ينتهي من طعامه يتمنى له الجميع صحّة طيبة بقولهم: «صحة عليك!» ثم يشكر الله ثلاث مرّات ثم ينهض من مقعده ويقف الضيوف معه، ويتجه الجميع لغسل أيديهم[13].

وعندئذ يحمل الصحون والمنضدة ويرفع الستار المسدل وتعود الأمور الى النظام الذي كان عليه من قبل.

وبعد الانتهاء من تناول طعام الغذاء يجلسون الضيوف على مقاعدهم لتقدم اليهم القهوة وأحيانا الغليون أيضا حينما يكون المضيف مدخنا وعقب ذلك ينهض الجميع الواحد بعد الآخر حسب مراتبهم ثم ينصرفون وبذلك تنتهي المأدبة.

على كل حال فالناس البسطاء هناك من يتنازلون عن جميع الأكلات الساخنة عن طيبة خاطر (باستثناء مآدب المناسبات)، ويكتفون بتناول غذاء يكون من الخبز وقليل من الزيتون وشيء من كسرة الشعير وأشياء أخرى بسيطة، والحضري لا يحتاج زيادة على السكن والغذاء إلا الى شيئين ضروريين جدا، وهما حلاقة الراس والحمام، والحلاق لدى الحضر شخصية متميزة، وكثير ما يجتمع الأعيان في حانوته.

---

(12) أنظر مذكرات أسير الداي (كاثكارت) قنصل أمريكا في المغرب — ترجمها عن الأنجليزية — الأستاذ إسماعيل العربي ص 73.

(13) مازالت هذه الظاهرة الحميدة موجودة حتى اليوم في المجتمع الجزائري وهي تعبر عن مدى تحضر الجزائريين وتعلقهم بآداب الأكل.

على كل حال فإن الخبز، ولحم الضأن، والدجاج، والسمك، والزبدة، وزيت الزيتون، والفواكه، والخضروات، والكسكس ويدعى أيضا الطعام يصنع من عجينة تشبه العجينة التي تصنع منها المقارونة الايطالية والكسكس يمكن اعتباره الصحن القومي، وهو بمثابة المقارونة في إيطاليا والأرز في الهند.

والكسكس في مدينة الجزائر يعد بمثابة طبق شعبي يفتل حبات صغيرة في قصعة مصنوعة من الخشب ثم يوضع في كسكاس ويطهى بالبخار، وقد يرتق بالمرق والخضروات، أو يقدم بالبيض المسلوق، أو بأعشاب حلوة أو بالعسل الخ...

والكسكس لذيذ الطعم ومغذ والفئة جدا غير الميسرة التي لا تستطيع شراء اللحكم تحضره بزيت الزيتون أو مدهونا بالزبدة.

وكان أهالي مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي لا يستهلكون إلا قليل لحم البقر، وهم لا يذبحون عجلا أبدا وفي أجود الفصول التي يكثر فيها العشب كانت تعمد كثير من عائلات مدينة الجزائر الى ذبح ثور أو ثورين ويقطع لحمه ثم تجففه في الشمس و بعد ذلك يغلى في الزيت ثم يحفظ في أواني ويغطى بالزيت أو بالسمن ويوضع في الخابية لاستهلاكه في وقت آخر وهو ما يدعى بالخليع عند عامة الشعب.

لباس الجزائريين

أما نوعية الملابس التي يرتديها أهالي مدينة الجزائر فتختلف باختلاف طبقات الناس، وثروه الأفراد، وفصول السنة.

. وكانت ملابس الأتراك الكرغليين مزينة عادة بالقطب وبحواشي الذهب أو الفضة أو الحرير طبقا لأذواق الشخص وشكل العمامة وثناياها ونوع الماده التي صنعت منها هي المقياس الذي يحكم عليه الناس بقيمة الرجل الذي يلبسها.

ويلبس الرجل فوق جميع ملابسه برنوسا يحمله على كتفه ويغطي به كل جسمه والبرنوس يصنع قطعة واحدة وهو من ناحية شكله يتسم بالبساطة والاناقة معا.

وينسج البرنوس من صوف ناعمة بيضاء، أو تستعمل لنسجه الوبر وهو شعر الجمل وتصنع زخارفه وحواشيه من الحرير في بعض الأحيان وكان البرنوس في أواخر العهد العثماني بالجزائر الذي يلبس في فصل الشتاء ويحمل في الأسفار وينسج من خيوط أمتن بحيث يقي من المطر، ويكون لونه أسود.

ولباس النساء العربيات في مدينة الجزائر يتكون من قميص صغير يصنع عند نساء الطبقة الغنية من أرفع المواد وأفخرها ومن سراويل ينزل نحو الأسفل، وثوب من الحرير، أو من مادة أخرى، ويكون غنيا بالتطريز، ويغلق بشريط من الوراء وأخيرا تلبس المرأة الجزائرية حذاء ولكن بدون جوارب والمرأة الجزائرية كانت تلبس الحلي الثقيلة بما في ذلك خواتم وأقراط الذهب وأساور وخلاخل من الذهب، والفضة، والمعدن الشائع في الطبقات الغنية هو الذهب ثم تنزل النساء حسب طبقتهن الى الفضة، ولباس الرأس القومي لدى نساء مدينة الجزائر هو السرمة الذي يصنع من الذهب، أو الفضة حسب الطبقة التي تنتمي اليها المرأة، وهو مخروطي الشكل وفوقه يلقى حجاب شفاف كثيف أو خفيف التطريزة هذا بالنسبة الى المرأة. وأما الفتاة غير المتزوجة فترتدي على رأسها بدلا من ذلك، قلنسوة عادية مطرزة بسكونيات، وهو ذهب ايطالي كانت العملة المضروبة منه متداولة في مختلف الدول الايطالية كما كان شائعا في تركيا والجزائر في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

وكانت الفتيات الجزائريات تلبسن سراويل متعددة الأوان وكن تلبسن ثوبا جميلا يغطيه حايك من النوع الذي تقتضيه الظروف وعندما تسافر المرأة الجزائرية أو تذهب لزيارة الأقارب فإنها ترتدي حايكا أبيض يغطي جسمها كله من الرأس الى أخمص القدمين والنساء الجزائريات يلتقين أما في الزيارات المتبادلة في المنازل، أو الحمامات العمومية التي يترددن عليها كثير والتي تفتح أبوابها في فترة ما بعد الظهر للنساء فقط.







الفصل الثالث

الحياة الثقافية في مدينة الجزائر في العهد العثماني



لم تكن مدينة الجزائر قبل العهد العثماني إلا مدينة ساحلية صغيرة قليلة الأهمية، فلم تعرف كمركز ثقافية مثلما كانت بجاية أو تلمسان فهي لم تنل ما نالته من أهمية إلا بعد دخول الأتراك، إذ أصبحت تعرف «بدار السلطان» والمركز السياسي في البلاد، فأحرزت على خطوة كبيرة ووفد عليها السكان في أعداد وافرة، قادمين من مختلف الجهات وخاصة من منطقتي تلمسان وقسنطينة.

وكان لمدينة الجزائر رصيد ثقافي هام في ميدان الموسيقى الأندلسية يعود الفضل إلى المدينتين الآنف ذكرهما من حيث نوع هذه الموسيقى وتطورها خاصة بعد أن هاجرهما عدد كبير من الأهالي الوافدين على الجزائر إثر الهجومات الاسبانية.

وكانت توجد قرابة وثيقة بين رصيد تلمسان الموسيقي المعروف بالغرناطي ورصيد الجزائر العاصمة المسمى بالصنعة، رغم ما يحتوى هذا الأخير من فوارق واضحة في أسلوب الأداء الآلي والصوتي وفي الهيكل العام لنوباته، وهي تغييرات لم تتمكن من اللحاق بالنوبات التلمسانية التي بقيت محافظة على أصالتها(1)

أما في ميدان الثقافة وأعني عالم الفكر والأدب، فمدينة الجزائر لم تكن مشهورة كمدينة علم وأدب وفكر مثلما هو الأمر بالنسبة الى مدينة فاس، أو تونس، أو القاهرة أو مرّاكش، أو بجاية أو تلمسان، ولكن هذا لا يعني أنه لم تكن بها مدارس علم ومساجد تعقد فيها الحلقات العلمية بل بالعكس، كانت توجد بها دور العلم والثقافة.

---

(1) أنظر دراسة بقلم: د. محمود قطاط ــ تحت عنوان التراث الموسيقي الجزائري صفحة 142.

ولكن لم تعرف نهضة علمية وفكرية ولم تكن مركزا ثقافيا مشهورا (ماعدا في ميدان الموسيقى التي كان لها فيه باع) قبل مجيء العثمانيين الى الجزائر وجعلها عاصمة للبلاد.

وكان لمدينة الجزائر مشاهير في عالم الفكر قبل عهد الأتراك، ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك بعبد الله بن السكات (641هـ — 1243م) — وكان من كبار القضاة وعالم كبير وهو من مواليد الجزائر، وعاش مدة طويلة بمالقة في الأندلس (الفردوس المفقود).

ومن علماء المدينة أيضا محمد بن منداس (643هـ — 1245م) وكان لغويا شهيرا.

على كل حال أصبح لمدينة الجزائر أهمية وقيمة عظيمة بعد ما أضحت[2] عاصمة البلاد السياسية والادارية إبان العهد العثماني، ولا يخفى على أحد أن رجال السياسة أو ذوي السلطان يؤثرون أبلغ الأثر في عالم الثقافة بتشجيعهم وعطاياهم وتأييدهم للأدباء والمفكرين، فمصير الثقافة مرتبط برعاية أصحاب السلطة لها.

ربّ سائل ما هو موقف الأتراك في الجزائر في الثقافة والمثقفين...؟ وكيف كانت حالة الثقافة ابان العهد العثماني في الجزائر ؟— والحق يقال أن أغلبية كبيرة من الكتاب الجزائريين أثناء العهد العثماني كانوا يصفون البايات والدايات العثمانيين في الجزائر بأنهم أتراك «وأعاجم».

---

(2) كلمة الجزائر لم تكن تطلق إلا على المدينة الساحلية في القرن التاسع الهجري ولم يصبح مفهوم الجزائر كقطر الا منذ القرن العاشر الهجري، أي أثناء الحكم العثماني وعبارة المغرب الأوسط اطلقها العرب المسلمون، وخريطة القرن التاسع السياسية تبين أن المغرب كان تحت نفوذ ثلاث دول رئيسية هي: المرينية وعاصمتها فاس والزيانية وعاصمتها تلمسان، والدولة الحفصية وعاصمتها تونس مع العلم أن جزءا كبيرا من الشرق الجزائري كان تحت تبعية الدولة الحفصية (وهي قسنطينة، وعنابة، وبجاية، وبسكرة وتقرت وكان ما يعرف اليوم بالمغرب الجزائري تحت نفوذ الدولة الزيانية التي اتخذت قاعدتها تلمسان أما وسط القطر الجزائري الحالي فكان منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين ومن ثمة كان منطقة صراع دائم بين القوتين.

صفات الحكام الأتراك في الجزائر

ذلك أن هؤلاء الحكام كانوا دائما من خارج الجزائر، وكان أغلبهم لا يتكلم إلا التركية، وكانوا من جنسيات مختلفة «تركية، ويونانية، وألبانية وإيطالية» الخ.

ولذلك كانوا ينعتون أيضا «بالأعلاج» وكانوا في معظم الأحيان جهلة لا يعرفون حتى القراءة والكتابة، كما كانوا مغامرين لا فائدة لهم من الحكم إلا جمع المال والتسلط، ثم أنهم كانوا يحكمون الجزائريين بيد من حديد ويسلبونهم أموالهم وثرواتهم عن طريق الضرائب، والرشي، والهدايا ونحوها بل أنهم تعدوا على حرمات الأوقاف وأموال العجزة واليتامى، وكانوا لا يسمحون للجزائري أن يقترب من النفوذ السياسي[3]، وقد مكنوا طائفة اليهود في الاقتصاد، وكانوا يفضلون الأسيرة المسيحية على المرأة الجزائرية المسلمة (رغم وجود بعض حالات زواج بجزائريات)، ثم أنهم كانوا لا يتكلمون لغة الجزائريين ولا يستعملونها في الادارة إلا قليلا، ولا يوظفون الجزائريين إلا في الوظائف الثانوية، ولا يسوّون في تطبيق أحكام الشريعة بين المسلم الجزائري والمسلم العثماني.

كما كانوا جفاة غلاظا، أمتاز عهدهم بالعنف الدموي وقصر فتراتهم في الحكم نتيجة الصراع على الكرسي والمؤامرات، وامتاز عهدهم أيضا بالفوضى وانتشار الرشوة والظلم والفساد مدى ثلاثة قرون من حكمهم. وهذا هو الجانب الأسود من العهد العثماني.

أما الجانب المضيء أو المشرف منه فهو أن العثمانيين قد انقذوا بتدخلهم في بداية القرن العاشر المغرب الاسلامي من الاحتلال الأجنبي الصليبي المؤكد وقد كانوا في ذلك غزاة مجاهدين تحالفوا مع الجزائريين لصدّ العدوان المسيحي الصليبي المتعصب.

وربّ سائل عن مصدر قوة العثمانيين في الجزائر رغم قلة عددهم، أن قوتهم الأولى كانت تكمن في تأيد الخلافة لهم، وذلك هو المصدر الرئيسي الذي اعتمدوا عليه في حكم الجزائريين.

والمصدر الثاني لقوتهم هو استجابتهم لداعي الجهاد ضدّ الكفار أعداء الدين، ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك بمقاومة وجهاد بابا عروج، وخير الدين ضدّ الاسبان في القرن السادس عشر الميلادي، ومع الجهاد جاء الغزو البحري والثروة الاقتصادية والرخاء الذي عمّ الخزينة العامة ومجموع السكان.

أما الطبقات والفئات الاجتماعية التي رمت بثقلها وراء العثمانيين فهم معظم المرابطين ومهاجرو الأندلس واليهود، فقد كان لهؤلاء مصالح حيوية في بقاء النظام العثماني.

وكان المرتدون في الديانة المسيحية (الاعلاج) الذين تركوا يشكلون أيضا قوة أخرى اعتمد عليها الحكم الى جانب أتراك أناضوليا المغامرين الذين كانت قوتهم تكمن في قلة عددهم وتماسكهم.

موقف أتراك الجزائر من العلماء المفكرين

يكمن النقص لدى أتراك الجزائر أنهم لم يعنوا بالمفكرين والمثقفين أية عناية تذكر، فلم يؤسسوا جامعة كالقرويين بفاس أو الأزهر بالقاهرة أو الزيتونة بتونس، تبحث العلم وتخرج العلماء والكتاب وتحفظ اللغة وتربي العقل، ثم أنهم لم يكونوا يتكلمون لغة البلاد، ولا يتذوقون أدبها ولا يقرأون كتبها، ولا يتصلون بعلمائها اتصالا عاطفيا وعقليا كما فعل مثلا سلاطين المغرب، أو أمراء تلمسان، أو حتى بايات تونس.

فهم لم يعقدوا المجالس العلمية والمناظرات كما كان يفعل قبلهم أمراء بني زيان وبني حفص وغيرهم، وهي المجالس والمناظرات التي كانت تشحذ المواهب

ويتنافس فيها العلماء وتبرز القضايا الفكرية والخلافات المذهبية، ثم أن حرمان مدينة من جامعة أو معهد للتعليم العالي قد جعل معظم علمائها يتكونون خارجها.

على كل حال لا يمكن أن ننعت عهد الأتراك في الجزائر، كعهد انحطاط وجمود ثقافي، لأن الواقع الثقافي من الناحية التاريخية عرف حالة انتعاش بفضل استقرار الأوضاع السياسية، وازدهار الحياة الاقتصادية وتوارد العلماء المسلمين على الجزائر، ووفرة الكتب.

علماء مدينة الجزائر

وكان العلماء يمثلون الرأي العام في الجزائر خلال العهد العثماني فهم رغم ترفعهم الطبقي عن العامة، كانوا على صلة بالناس في الدروس، ومجالس الفتوى، والقضاء، والزوايا، وخطب الجمعة، ونحو ذلك وكان بعض العلماء يجلسون في المقاهي ويختلطون بالناس في الأسواق أيضا، وكان بعضهم يكثر عليه الازدحام في الدرس والخطبة حتى يلفت النظر لنفسه فتخشاه السلطة.

وكان الناس يثقون في رجال الدين أكثر مما يثقون في رجال السياسة والحرب، ولهذه المكانة التي كانت للعلماء، كان العثمانيون يقدرونهم ويخشونهم ويتقربون منهم ويمنحونهم الهدايا ويطلبون تأييدهم في أيام الشدائد كما أن العلماء كانوا يلجأون الى الباشوات والبايات طمعا في مال أو وظيفة أو تأييد ضد منافس(4).

واحتكر العلماء في الجزائر وظائف معينة في المجتمع، وهي الافتاء، والقضاء، والتعليم، والامامة والخطابة.

---

(4) أبو القاسم سعد الله — تاريخ الجزائر الثقافي — الجزء الثاني ص416.

وكانت بعض الأسر العلمية تتميز بالثراء الغزير، فقد لاحظ المقرطي صاحب النفحة المسكية[5] في أواخر القرن العاشر، إن علماء الجزائر تغلب عليهم المادية، فقال: إن حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم.

والمفتي سعيد قدورة، كان ذا مال يشارك به بعض التجار، وجاء في كتاب ابن المفتي أن عمار بن عبد الرحمن المستغانمي، كان ينفق على ضيوفه بين ثلاثين وأربعين ريالا في الليلة الواحدة، وقيل عن المفتي أحمد الزروق بن عمار بن داود، أنه كان صاحب ثروة.

وشهد القرن الثاني عشر الهجري (18م) وأوائل الثالث عشر حركة قوية في صفوف العلماء والعناية بالتعليم وكثرة التأليف.

ففي أواخر القرن الثاني عشر الهجري (18م) بدأت نهضة فكرية شملت تشجيع التعليم والعناية بالأوقاف والاهتمام بالعلماء والكتب[6]، وقد ساهم في هذه الحركة بعض البايات، أمثال صالح باي، والحاج محمد الكبير.

وقد سيطرت عدّة ظواهر على الحياة الثقافية (يضيق المقام عن ذكرها بالتفصيل) من أهمها انتشار التصوّف، والدروشة، وشيوع الشروح والحواشي على أعمال المتقدمين والثقافة الموسوعية والحفظ، فالتصوّف الذي يعني الزهد والتقشف والصلاح والعمل بالعلم والابتعاد عن الدنيا وأهلها (ويمكن أن نضرب مثلا بالتصوّف الصالح، تصوّف الامام الغزالي صاحب المنقذ من الضلال، وأحياء علوم الدين)، قد ترك مكانه في أغلب الأحيان الى نوع من التصوّف هذا أقرب الى الدروشة، والدجل منه الى الصلاح، لذلك شاعت مغامرات مدعي الولاية من أصحاب الطرق الدينية.

---

(5) أبو القاسم سعد الله — تاريخ الجزائر الثقافي — الجزء الثاني ص396).
(6) أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي — الجزء الأول — صفحة 14.

وكانت السلطة متواطئة مع هؤلاء، أو غاضة النظر عنهم، وقد شاع هذا التصوف حتى بين العلماء العاملين كالفقهاء أو النحاة والمؤرخين بل حتى بين الولاة والمسؤولين، فأنت لا تكاد تجد عالما، في آخر القرن الثاني عشر الهجري (18م) إلا وهو منتمي الى إحدى الطرق الصوفية، كالقادرية والرحمانية أو التجانية (نسبة الى مؤسسها الشيخ إبن العباس أحمد بن محمد بن سالم المختار التجاني ولد مدينة عين ماضي سنة 1737م ودفن مدينة فاس في 14 شوال 1230هـ 19 سبتمبر 1815م) أو درقاوة الشاذلية، وكان العالم يأخذ الورد، والسبحة، والمصافحة، والخرقة ونحوها من أحد شيوخ الصوفية، وقد كانوا يتباهون بذلك ويسجلونه في اثباتهم ومذكراتهم[7].

كما كان بعض الولاة يتقربون الى رجال الصوفية بوقف الأوقاف عليهم وإعفائهم من الضرائب وبناء القباب لهم والتبرك بهم، وأخذ العهد منهم ونحو ذلك.

وعلى كلّ حال فقد عرفت مدينة الجزائر[8] نمو عدد سكانها وشيوع المدارس والمساجد بها، التي تغذي المجتمع بثقافة روحية وعقلية خلال العهد العثماني وكانت في مدينة الجزائر عائلات إشتهرت بالعلم والتأليف والدرس أو بالزهد والتصوف منها عائلة إبن السكات وكذا الزاهد العالم عبد الرحمن الثعالبي وتلميذه أحمد بن عبد الله الجزائري.

---

(7) أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي — الجزء الأول — ص 15).

(8) كانت الجزائر في العهد العثماني في أسطانبول الصغرى كما سماها بعضهم في نظمها السياسية والادارية، ولعب علماؤها نفس الدور الذي لعبه علماء أسطانبول في الحرب والسلم، وكانت تستقبل العلماء من أطراف العالم الاسلامي.

كما كانت الجزائر مثل أسطانبول تفتقر الى جامعة اسلامية منوط بها تخريج الفقهاء والعلماء والأدباء وكتاب الانشاء أو الدواوين.

أنظر: لمزيد من التفاصيل (د/ سعد الله — تاريخ الجزائر الثقافي — حول مكانة العلماء ووظائفهم — الجزء الأول — ص 394 وما بعدها).

عبد الرحمن الثعالبي

وكان عبد الرحمن الثعالبي معروفا بالزهد والتصوّف، ولولا اغراق النار
بعده في الطريقة لكان الثعالبي مجرد عالم زاهد ومؤلف في علوم الدين الاسلامي
وقد ترك الثعالبي عددا من الكتب قد تصل الى الخمسة عشر كلها تقريبا في
التفسير، والمواعظ، والتوحيد، والفقه.

ولد الثعالبي بوادي يسر غير بعيد عن مدينة الجزائر، ودرس بهذه المدينة
ومنها انطلق الى بجاية لقربها، وشهرة علمائها في الدين، والتصوف، وخاصة
مدرسة عبد الرحمن الوغليسي، وقصد بعد ذلك تونس حاضرة الحفصيين
وحاضرة علماء جامع الزيتونة، وأخذ الثعالبي العلم بتلمسان وبعد ذلك في مصر
ومكة المكرمة، ولعله زار أيضا بغداد، ودمشق، والقدس، وكان خلال تجواله
يتلقى العلم بالمشافهة أو بالاجازة فقد أصبح من رواة الحديث ولا سيما صحيح
البخاري الذي كان من أبرز رواته ومدرسيه في الجزائر، وله في ذلك فهرس
أسماه (غنية الواجد وبغية الطالب الماجد)، ولم يكتف الثعالبي بأخذ الحديث
رواية بل درسه أيضا في تونس ومدينة الجزائر[9].

وقد أثر الثعالبي تأثيرا كبيرا في ميدان الزهد والتصوّف عن طريق دروسه
وتلاميذه، وكذا مؤلفاته التي ينشرها دعاته واتباعه ثم عن طريق زاويته التي
تأسست عند ضريحه، والتي أصبحت مقصد الزوار وملتقى الدارسين ومجمع
طلاب البركة والشفاء.

وقد ساندت السلطة العثمانية في الجزائر هذه الزاوية التي اتسعت شهرتها
لكونها في عاصمة الدولة، ولكون الثعالبي نفسه من أبناء المنطقة.

ومن تلاميذ الثعالبي الذين ساروا على نهجه واقتفوا أثره (أحمد بن عبد
الله الجزائري)، وقد جاءت شهرة الجزائري عن طريق قصيدته في التوحيد

(9) أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي — ص 84).

المعروفة بالتنظيمة الجزائرية والتي تسمى أحيانا (الجزائرية) وهي التي تداول عليها أكثر من واحد يحللها ويشرحها ويثني على صاحبها رغم أنه نظمها عندما كان في مقتبل العمر، ومن الذين شرحوها شرحا مطولا أثناء حياة صاحبها الشيخ عبد السنوسي الذي اشتهر في وقته بالتعمق في العقائد، فقد أرسلها الناظم بنفسه الى السنوسي وطلب منه شرحها، والمنظومة تبدأ هكذا:

الحمد لله وهو الواحد الأزلي
سبحانه جل عن شبه وعن مثل

أما الطريق الثاني الذي اشتهر به أحمد الجزائري، فهو اقامة زاوية باسمه في مدينة الجزائر أيضا، وعناية السلطة العثمانية بها.

فقد أصبحت زاويته مدفنا لعدد من مشاهير علماء مدينة الجزائر نذكر منهم سعيد قدورة، وأحمد زروق بن عمار، ومحمد بلقاسم بن اسماعيل المطماطي الذين تولوا جميعا وظيفة الافتاء.

ويمكن أن نضيف الى مصادر شهرة الجزائري، كونه من تلاميذ الثعالبي وهو الذي رثى شيخه بالقصيدة العينية، ولمكانة الجزائري في عصره كان يلقب (بالقطب) وهو لقب صوفي لا يناله إلا من تدرج في [15] مدارج الطريقة وشهد له الناس بالصلاح.

عبد الرزاق بن حمادوش

ومن علماء مدينة الجزائر عبد الرزاق بن حمادوش، وكان أديبا وشاعرا وكاتبا وعالما، وطبيبا ورحالة، فهو يشبه ليونارد ودافنشي الايطالي في عصر النهضة الايطالية من عدة نواحي، فالحق يقال أن إبن حمادوش كان عبقريا ونابغة قل مثله من النوابغ في الجزائر ابان العهد العثماني.

ولد عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري في مدينة الجزائر سنة 1107 هجرية (18م) وعاش الى أن تجاوز التسعين، حسب بعض الباحثين ولكننا لا ندري متى توفي بالضبط، والأرجح أن المنية وافته في المشرق ما بين 1197 هجرية و 1200 هجرية، وقد نشأ بمدينة الجزائر وتعلم بها العلوم الشائعة عندئذ، وكان من أسرة متوسطة الحال تلقب بأسرة الدباغ، لأن والده وعمّه، كما يظهر، كانا يشتغلان بالدباغة وقد تزوج عبد الرزاق بن حمادوش صغيرا من أبنة عمّه حسب عادة العائلات المحافظة، وكانت أسرته على صلة بطبقة التجار والحرفيين في مدينة الجزائر، لذلك تزوجت أخته من عائلة تشتغل بالحرارة وتزوج مرّة ثانية من عائلة تحترف صناعة النحاس وتلميعه، وتوفي والده وهو مازال صغيرا.

وكان الفقر سببا في شقاء زواجه حتى هربت منه زوجه الثانية وطلبت الطلاق، وفارقته أمّه وأخوه، وحاول الجمع بين العلم والتجارة فلم يفلح لأنه كما قال كان لا يفارق الكتب(1).

وقد درس في الجزائر، وفي والمغرب الأقصى، وفي تونس على يد كبار العلماء ونهل من علوم اللغة والأدب والطبّ، وفقه وتصوّف وتوحيد وكان بطبعه ميالا الى الكتب العلمية، وقد روى أنه درس تآليف القلصادي في الحساب وشرح محمد السنوسي على الحباك في الاسطرلاب والقانون والنجاح والطلاسم لابن سينا، ومقالات اقليدس، وشرح إبن رشد على منظومة إبن سينا، وتاريخ الدول للملطي في أخبار العلماء والاطباء وكتاب السطي في دوات الأسماء والمنفصلات، وطالع عمل عبد الرحمن الفاسي في علم البونبة (أي القنبلة) كما ولع بكتب المنطق وألف فيه، وبالاضافة الى هذه المصادر اعتمد إبن حمادوش على التجربة والمشاهدة، فقد كان يخرج للجبال المجاورة لمدينة الجزائر لاجراء التجارب والتقاط الأعشاب والتدرب على رمي البونبة ووزنها وبارودها ومسافة انطلاقها، وعندما كان في المغرب سجل ملاحظات علمية هامة أثناء مروره من

تطوان الى فاس والعكس، فلاحظ عذوبة وملوحة المياه، وأنواع الأشجار، والطيور، والحيوانات وغرائبها.

كما لاحظ حركة النجوم وعالج التغلب على الحمى، ونفس الشيء فعله عندما كان في الجزائر، ومصر أيضا حيث سجل كتابه (كشف الرموز) مشاهده من غرائب النبات هناك، كما وضع ميزانا للماء وهو في الجزائر.

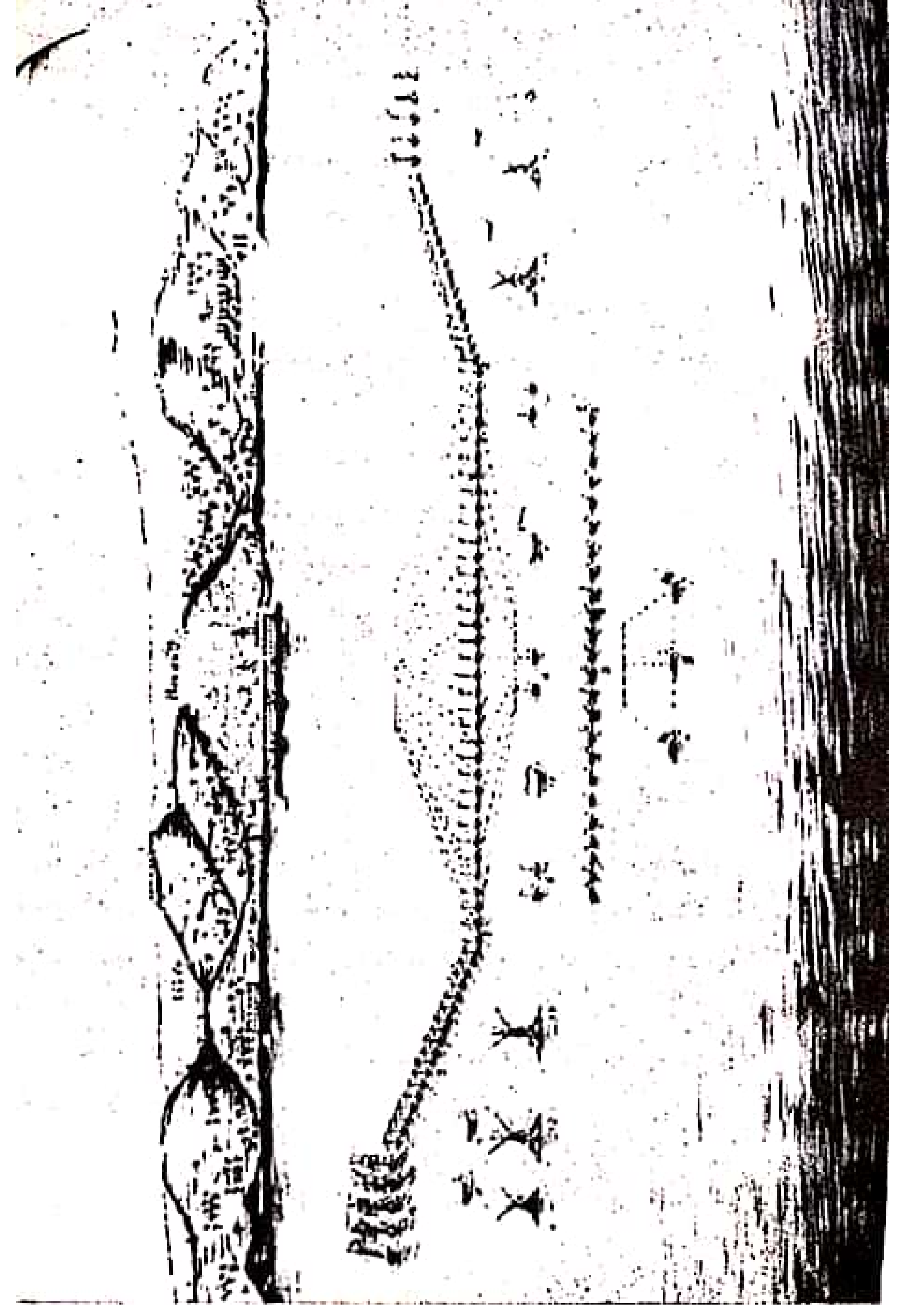
ومن بين أنواع العلوم اهتم إبن حمادوش خصوصا بالطب والفلك، وألف في ذلك عدة تآليف، وقد كتب عن نفسه وهو ما يزال في شبابه (سنة 1145هـ) بأنه أصبح طبيبا، وصيدليا، وعشابا وافتخر بأن الأعشاب التي قيدها في تآليفه كلها معروفة لديه، وكان كثير القراءة في كتب الطب القديمة، عربية وأجنبية.

فقرأ ولخص ودرس تآليف إبن سينا، وإبن البيطار، والأنطاكي وقد أراد أن يؤلف كتابا كبيرا في علم الطب وفروعه، فكان (الجوهر المكنون من بحر القانون)، الذي يبدو من عنوانه أنه اعتمد فيه على كتاب القانون لابن سينا.

وقد أشاد كل من ليكليرك وكولان بأصالة فكر إبن حمادوش وأهمية العمل الذي قام به في كشف الرموز (وهو قاموس طبي سار فيه على طريقة المعاجم الأبجدية)، فقال الأول: إن إبن حمادوش لم يستند الى الخرافات في عمله وإن فيه إضافات جديدة في المواد الطبية التي لا علاقة لها بالأدوية الأوربية، وإن قرب تأليفه من وقت دخول فرنسا للجزائر هو الذي جعله يقدم على زجته[12]، لأهمية موضوعه في التعرف على عادات التداوي عند السكان، وعمل إبن حمادوش لم يكن مجرد اختصار لعمل غيره لأنه ضمنه أدوية لم تكن معروفة عند الأنطاكي وامثاله، وأنه ذكر فيه أدوية أوربية أصبحت متداولة في الجزائر، ولذلك قال ليكليرك بأن (كشف الرموز)[12]. يشكل صفحة هامة في تاريخ الطب.

---

(12) د/ سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي ــ الجزء الثاني ص 447).



الفصل الرابع

سقوط مدينة الجزائر

سقوط مدينة الجزائر: أسباب الأزمة

لقد أدى سقوط مدينة الجزائر عاصمة الدولة الجزائرية الى تغير وجه المدينة العربي الاسلامي من قبل الغزاة الفرنسيين، وكذا تغير مسيرة التاريخ، وقبل أن ندخل في تفاصيل ما جرى تهديمه وتشويهه من معالم المدينة العربية، لابأس أن نقدم بعض المعلومات عن أسباب الحرب التي وقعت بين الجزائر وفرنسا، وأدت بهذه الأخيرة الى احتلال مدينة الجزائر عاصمة البلاد موضوع دراستنا، والمعروف تاريخيا أن أحد أسباب هذه الحرب هي المطالب التي تقدم بها التاجر اليهودي بكرى للحكومة الفرنسية لتأدية ديون يرجع تاريخها الى الثورة الفرنسية أي قبل عهد الأمبراطورية، وقد ترتبت هذه الديون عن تزويد الجزائر لفرنسا بالحبوب، وحددت الفرنسية بقرار ثمن هذه التزويدات بسبعة ملايين فرنكا ولكن التسديد لم يتحقق.

وجرى العقد باسم اليهوديان الجزائريان بكرى وشريكه ميكائيل بوجناح وكان بكرى مدينا لخزينة الجزائر بمبالغ هامة تمثل قيمة كميات من الصوف اشتراها من الدولة الجزائرية، فكان يعتمد على التصفية لتسديد ديونه، وكان لتجار فرنسا، من أهل مرسيليا، على تجار الجزائر مليونان وخمسمائة ألف فرنك، زعموا أمرهم الى دولتهم، وطلبوا منها أن تنقذ لهم أموالهم، من أصل سبعة الملايين، المحكوم بها لحكومة الجزائر، فادت دولة فرنسا للحكومة: أربعة ملايين ونصف مليون وأبقت ما أدعى به تجارها «في صندوق الأمانة»، وأمرت أن تجري دعوى تجارها مع غرمائهم، من أهل الجزائر في مجلس التجارة في باريز فغضب الباشا لذلك، وطلب أداء الأموال المحكوم له بها كلها وأن تكون مرافعة التجار الغرماء، في مدينة الجزائر.

وأدعى أن الحق له في ذلك بموجب العهود التجارية، بين الحكومة وسائر الدول[1]، وطال النزاع واستمرت فرنسا مصرّة على أمرها والباشا يطلب الجواب من قنصل فرنسا، الجنرال «دوفال» فيحاوله بالمواعيد.

---

(1) محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ص 127 — 128.

أزمة المروحة

واستقبل الداي قنصل فرنسا عشية العيد في أول يوم من شوال سنة 1827هـ /1927م لاداء التهنئة بعيد الفطر، فشكا له الباشا عدم ردّ الجواب من ملك فرنسا، على كتاب قدمه له فقال له: ليس من العادة أن يجاوب الملك من هو دونه، بدون واسطة !!، ففهم الباشا من ذلك، أن مراد القنصل أن الملك لا يعتني بمجاوبة مثله فاشتد غضبه، ولطم القنصل على وجهه، بمروحة كانت في يده وضربه بالمروحة ضربة واحدة (وهذه المروحة مصنوعة من سعف النخيل).

وكان القنصل (دوفال) لوّث شرف حكومته بأعمال الرشوة، وباحتجاز برقيات الداي الموجهة الى الحكومة الفرنسية، وسبق لهذا القنصل أن تورّط في كثير من القضايا (لأنه كان تاجرا أيضا) مع محلات اليهوديان: بكرى وبوجناح، ولقد كانت موافقته الشخصية من الأسباب التي زادت الوضع تعفنا عندما وقعت الأزمة الأخيرة بين الجزائر وفرنسا. وعندما لطم الداي حسين القنصل (دوفال) طير هذا الأخير الخبر الى ملكه، فجاءه الأمر فبارح الجزائر، بمن معه من الفرنساويين المقيمين في الجزائر.

ثم أن الباشا إنتقم على من تأخر في البلد، من ضعفائهم فاستأصلهم وخرّب قلعة «دي لاكار» وكل بناء للفرنسيين في الجزائر «وبونة» وقبل الحملة الفرنسية سنة 1830م جهزت فرنسا أساطيلها وبعثتها لغزو مدينة الجزائر عاصمة البلاد.

الأزمة بين الجزائر وفرنسا

على كل حال فإن أصول الأزمة بين الجزائر وفرنسا تعود الى الأطماع التوسعية الفرنسية في البلاد الجزائرية (ولا تقتصر على قضية المروحة فحسب بل أكثر من ذلك)، وتتجلى هذه الأطماع في المطالب الاقليمية في الجزائر ويعتبر

ذلك عنصرا من عناصر الخلاف الذي اندلع بين الجزائر وفرنسا وعمدت الدبلوماسية الفرنسية الى تغليف[2] واخفاء هذه المطالب الاقليمية داخل عدد من المطالب الثانوية، التي أبرزتها واعتبرتها كأسباب أساسية للأزمة القائمة بينها وبين الجزائر.

والدبلوماسية الفرنسية لم تكشف عن اطماعها صراحة في هذا الصدد حتى حدوث القطيعة، ويؤكد هذا الاتجاه للدبلوماسية الفرنسية قبيل القطيعة وثيقتين: الأولى وهي المذكرة المؤرخة في 07 ديسمبر 1826م والتي بمقتضاها أعلنت الحكومة الفرنسية نيتها في فرض الحصار البحري على الجزائر وذلك قبل حادثة المروحة بخمسة أشهر.

والوثيقة الثانية وهي رسالة وزير الخارجية الفرنسي البارون دي ماس الى الداي حسين بتاريخ 28 فبراير 1827م التي عدد فيها «تظلمات» فرنسا ومطالبها إزاء الجزائر، حيث شكى اعتداءات البحارة الجزائريين على السفن الفرنسية، حسب زعمه فإن الداي كان قد تعهد بعدم مساس السفن الفرنسية مثلها مثل السفن البابوية.

وطالب وزير الخارجية الفرنسي اعتراف الجزائر بالاعتداءات مع الحصول على تعويضات، ومعاقبة البحارة، وكذا الكف عن الاعتداءات مستقبلا وما واقعة المروحة إلا مسرحية اتقن القنصل (دوفال) تمثيلها كما اتقن أدوارا أخرى من قبل، وأصبح لفرنسا بواسطتها مبررا جديدا لعدوانها على الجزائر واعتبر الفرنسيون أن الظروف ملائمة لتطوير الأزمة وتصعيدها.

فيما يخص المطالب الفرنسية في الجزائر نجدهم يطالبون بحق صيد المرجان على سواحل الجزائر، واحتكار مقاطعة قسنطينة تحت النفوذ التجاري الفرنسي،

(2) أنظر دراسة نشرت في مجلة التاريخ التي يصدرها المركز الوطني للدراسات التاريخية بقلم د. جمال قنان حول المطالب الاقليمية لفرنسا في الجزائر ص 16/ مجلة التاريخ ـــ النصف الثاني من عام 1984م.

هذا مع العلم أنه لا توجد معاهدة واحدة تعطي لفرنسا حق ملكية أي شبر من الأراضي الجزائرية.

أما قضية الاعتداء على سفينة الوفد المفاوض فقد أقامت فرنسا الدنيا وأقعدتها حول هذه المسألة على أساس أن الجزائر قامت بقصف سفينة ترفرف عليها علم السلم ويحمل وفدا مفاوضا، وحقيقة الأمر أن المدفعية الجزائرية الموجودة في الميناء لم تقم سوى بواجبها عندما رأت السفينة التي يركبها المبعوث الفرنسي[3] لا بروتونيير، والذي هو في نفس الوقت قائد عمارة الحصار، تقوم بمناورات مشبوهة قرب الميناء وأرسلت في إتجاهها وعلى مقربة منها وليس ضدها من القذائف للفت انتباهها، لارغامها على الابتعاد عن هذه المناطق المحظورة، وقد اعترف بمهمته التجسسية، عندما أكد في تقرير لحكومته بأنه من الضروري تأجيل القيام بأي قصف ضدّ المدينة، الى أن يتم ذلك مع هجوم يشن ضدها من الأرض بسبب كثرة المدافع الرابضة في حصن الميناء والحصون المجاورة التي تحيط بالمدينة في اتجاه البحر والتي كان عددها قرابة الالفي مدفع[4].

أما فحوى المفاوضات التي عرضتها فرنسا على الجزائر عن طريق مبعوثها الفرنسي لابروتونيير هو أن فرنسا ليست ملزمة بدفع أية اتاوة لا من النقود ولا من المرجان سواء لباي قسنطينة أو لقائد عنابة، كما تنص على حق التجار الفرنسيين في الاستقرار بمدينة عنابة ومدن الجزائر الساحلية مثلما هو الأمر بالنسبة للتجار الأوربيين الآخرين، وينص المشروع المقدم أيضا، على تعويض الخسائر المقدرة بخمسمائة ألف فرنك، مع الاعتراف بملكية فرنسا لمنزل قنصلها في عنابة وتعويض ما هدم من قصر القالة، وعلى أن تعترف حكومة الجزائر بأن فرنسا نفذت جميع تعهداتها بخصوص الديون التي لبكرى على الخزينة الفرنسية، وأن تبعات القضية من اختصاص المحاكم الفرنسية وحدها.

---

(3) أنظر دراسة نشرت في مجلة التاريخ التي يصدرها المركز الوطني للدراسات التاريخية بقلم د. جمال قنان حول المطالب الالتهبة لفرنسا بالجزائر. ص21.
(4) نفس المصدر — ص 21. النصف الثاني من سنة 1984.

هذا مع العلم أنه لا توجد معاهدة واحدة تعطي لفرنسا حق ملكية أي شبر من الأراضي الجزائرية.

أما قضية الاعتداء على سفينة الوفد المفاوض فقد أقامت فرنسا الدنيا واقعدتها حول هذه المسألة على أساس أن الجزائر قامت بقصف سفينة برفرف عليها علم السلم ويحمل وفدا مفاوضا، وحقيقة الأمر أن المدفعية الجزائرية الموجودة في الميناء لم تقم سوى بواجبها عندما رأت السفينة التي يركبها المبعوث الفرنسي[3] لا بروتونيير، والذي هو في نفس الوقت قائد عمارة الحصار، تقوم بمناورات مشبوهة قرب الميناء وأرسلت في إتجاهها وعلى مقربة منها وليس ضدها من القذائف للفت انتباهها، لارغامها على الابتعاد عن هذه المناطق المحظورة، وقد اعترف بمهمته التجسسية، عندما أكد في تقرير لحكومته بأنه من الضروري تأجيل القيام بأي قصف ضدّ المدينة، الى أن يتم ذلك مع هجوم يشن ضدها من الأرض بسبب كثرة المدافع الرابضة في حصن الميناء والحصون المجاورة التي تحيط بالمدينة في اتجاه البحر والتي كان عددها قرابة الالفي مدفع[4].

أما فحوى المفاوضات التي عرضتها فرنسا على الجزائر عن طريق مبعوثها الفرنسي لابروتونيير هو أن فرنسا ليست ملزمة بدفع أية اتاوة لا من النقود ولا من المرجان سواء لباي قسنطينة أو لقائد عنابة، كما تنص على حق التجار الفرنسيين في الاستقرار بمدينة عنابة ومدن الجزائر الساحلية مثلما هو الأمر بالنسبة للتجار الأوربيين الآخرين، وبنص المشروع المقدم أيضا، على تعويض الخسائر المقدرة بخمسمائة ألف فرنك، مع الاعتراف بملكية فرنسا لمنزل قنصلها في عنابة وتعويض ما هدم من قصر القالة، وعلى أن تعترف حكومة الجزائر بأن فرنسا نفذت جميع تعهداتها بخصوص الديون التي لبكرى على الخزينة الفرنسية، وأن تبعات القضية من اختصاص المحاكم الفرنسية وحدها.

---

(3) أنظر دراسة نشرت في مجلة التاريخ التي يصدرها المركز الوطني للدراسات التاريخية بقلم د. جمال قنان حول المطالب الالتهبية لفرنسا بالجزائر. ص21.

(4) نفس المصدر — ص 21. النصف الثاني من سنة 1984.

لم تقبل الجزائر بهذه التنازلات المهينة، وعندما تأكدت الحكومة الفرنسية أن لا أمل في ارغام الجزائر على قبول شروطها بدون الاضطرار الى جرد حملة برية وبحرية ضدها.

وما دمنا في صدد عوامل وأسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر لا بد أن نذكر بأن قنصل فرنسا في مصر عرض على مسؤوليه في باريز فكرة أشراك والي مصر محمد علي[4] في تحقيق مشروع الحملة خلال شهر سبتمبر من عام 1829م فتلقف رئيس الوزراء الفرنسي على الجزائر، (بولينياك).

هذه الفكرة، ساعيا بإلحاح على وضعها موضع التنفيذ، وكانت خطة محمد علي تقضي بتسيير جيش قوامه أربعون ألف جندي، نصفه يجند من القبائل، يتم تسييره برّا على الطريق الساحلي، والنصف الثاني يحصل على السفن، ورأى محمد علي عدم مشاركة فرنسا مباشرة في الحملة، لئلا يؤدي ذلك الى الاضرار بسمعته لدى أهالي المغرب عندما يرونه يقاتل جنبا الى جنب مع «الكفار» ضدّ المسلمين، كما اعتبر الحصول على أربعة سفن ذات ثمانين مدفعا شرطا أساسيا قبل البدء في تنفيذ مشروع الحملة هاته.

وقررت الحكومة العثمانية عدم التدخل المباشر في الأزمة بين فرنسا والجزائر، وأهملت متابعة الموضوع بسبب انشغالها في اخماد ثورة مورا، وكذا حربها ضدّ روسيا، في انتظار قيام فرنسا بمفاتحتها في الموضوع، ولكنها تحركت في سنة 1828م في اتجاه الضغط على الجزائر من أجل ترضية المطالب الفرنسية، ولم ترفض الاقتراحات الفرنسية الرامية الى تكليف محمد علي بقيادة حملة ضدّ الجزائر. عندما فاتحها سفير فرنسا في الموضوع في بداية شهر ديسمبر من

---

(4) يورد لنا صاحب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر محمد بن الأمير عبد القادر في كتابه (ص 130) المشار له أعلاه: أن محمد علي باشا خديوي مصر نصح الداي حسين وحذره من عواقب عدم ترضية فرنسا، وذلك في رسالة بعثها اليه، وعندما قرأ الداي حسين كتاب الخديوي قال للرسول: «بلّغه سلامي، وقل له: يأكل الفول !!» ولما وصل الجواب الى الخديوي عرف الحكومة الفرنسية بعدم تأثير نصيحته له: فاجمعوا على الحرب.

عام 1829، وعلى أن يصبح محمد علي واليا جديدا على الجزائر بعد تنحية الداي حسين[6] وقرر الباب العالي ايفاد مبعوث عثماني من أصل جزائري، هو محمد الطاهر باشا، من أجل التوفيق والمصالحة بين الجزائر وفرنسا، وأعطي تفويض مطلق في التصرف، على أن يأمر الجزائريين بالطاعة والامتثال له، وضمن هذا المسعي، اتصل محمد الطاهر باشا في عرض البحر بديبورمون، وعرض عليه المهمة التي أوفد من أجلها.

فأعلن إنه سيلزم الجزائرين بتقديم كل الترضيات للفرنسيين، وإنه في حالة ما إذا استمر الداي في أصراره على الرفض فإنه سيقطع رأسه..! ولكن ديبورمون ردّ عليه أنه ليس له صلاحيات للتباحث معه، وأنه إذا كان راغبا في التفاوض فما عليه إلا التوجه الى فرنسا، وذهب فعلا ولكن السلطات الفرنسية لم تعبأ به، حيث بقي عدّة أسابيع في تولون، وردّت عليه أنه لا يحمل اعتمادات كافية للتباحث معه، وهكذا يظهر أن الأمبراطورية العثمانية كانت لها سياسة متخاذلة وغير صارمة تجاه فرنسا.

حيث لم تعد سيدّة أمرها، فكانت مجرد أداة بين أيدي الدبلوماسيات الأوروبية، توجهها وفق مصالحها أو أهدافها.

مع العلم أن الدولة العثمانية بذلت كل ما في وسعها من أجل استرجاع الجزائر عن طريق الحلول الدبلوماسية، هذا رغم التراخي والانصياع للقوى الأوروبية، ولكن تعتبر مساعيها هذه كمجهود معتبر، إلا أنه محدود النتائج والمردودية، والعريضة التي قدمها حمدان بن عثمان خوجة الى وزير الحربية العثماني، يناشد فيها بتقديم المساعدة، وجرى دراسة هذه العريضة في مجلس الشوري العثماني في أسطانبول، وكانت هذه العريضة بمثابة عامل قوي من أجل تقوية الاتصالات العثمانية في سبيل استرجاع الجزائر، وهكذا قررت الدولة

العثمانية ايفاد مصطفى رشيد باي كسفير فوق العادة في باريس تلبية لرغبة
السلطان الهادفة الى استرداد الجزائر من الفرنسيين.

وعرج رشيد باي على فينا ووصل باريس في أواسط سبتمبر 1834
وبدأت الأيام للسفير العثماني في باريس بالزيارات الرسمية، حيث التقى بوزير
الخارجية الفرنسي دوريني وقدم له رسالة السلطان العثماني الى الملك فيليب.

وبعد لقاء رشيد باشا بالسفير الروسي طلب منه الأخير التمهل في مفاتحه
أو اثارة القضية الجزائرية أمام الفرنسيين.

وكانت الدولة العثمانية تسعى في تأييد بريطانيا للعثمانيين بشأن القضية
الجزائرية وذلك بعد مجيء المحافظ اللورد ولنقتون الى السلطة، ولكن خاب الأمل
بعد مقابلة جرت بين السفير العثماني نامق باشا واللورد ولنقتون، فقد أجاب
اللورد أنه لا يستطيع أن يقرر ما إذا كان سيتدخل لدى فرنسا أم لا بشأن
اعادة الجزائر للدولة العثمانية قبل تشكيل حكومته الجديدة تشكيلا تاما(7).

وفي 18 ديسمبر 1834 تقابل السفير العثماني مع وزير الخارجية الفرنسي
وعلى أثر فتح رشيد باي موضوع الجزائر، في مطلع مقابلتهما، لم يرغب الأمير
دي ريني في اثارة هذا الموضوع، ولكنه رضي بذلك بعد اصرار لطيف من
السفير، وأعلم رشيد باي وزير الخارجية الفرنسي بأنه مكلف بالتباحث، لتأمين
اعادة الجزائر للدولة العثمانية، كما بين للوزير بأنه سيقدم مذكرة بهذا الخصوص
للحكومة الفرنسية، وعندما سأل الوزير عن تاريخ وصول تلك التعليمات اليه
بشأن الجزائر، ردّ السفير بأنه «مع أن أصل مهمته هي تقوية الصداقة بين
الدولتين، إلا أن لديه الصلاحية لحل الخلاف الناشيء عن القضية الجزائرية».

عام 1829، وعلى أن يصبح محمد علي واليا جديدا على الجزائر بعد تنحية الداي حسين[6] وقرر الباب العالي ايفاد مبعوث عثماني من أصل جزائري، هو محمد الطاهر باشا، من أجل التوفيق والمصالحة بين الجزائر وفرنسا، وأعطي تفويض مطلق في التصرف، على أن يأمر الجزائريين بالطاعة والامتثال له، وضمن مثلا المسعي، اتصل محمد الطاهر باشا في عرض البحر بديبورمون، وعرض عليه المهمة التي أوفد من أجلها.

فأعلن إنه سيلزم الجزائرين بتقديم كل الترضيات للفرنسيين، وأنه في حالة ما إذا استمر الداي في أصراره على الرفض فإنه سيقطع رأسه..! ولكن ديبورمون ردّ عليه أنه ليس له صلاحيات للتباحث معه، وأنه إذا كان راغبا في التفاوض فما عليه إلا التوجه الى فرنسا، وذهب فعلا ولكن السلطات الفرنسية لم تبأ به، حيث بقي عدّة أسابيع في تولون، وردّت عليه أنه لا يحمل اعتمادات كافية للتباحث معه، وهكذا يظهر أن الأمبراطورية العثمانية كانت لها سياسة متخاذلة، وغير صارمة تجاه فرنسا.

حيث لم تعد سيدّة أمرها، فكانت مجرد أداة بين أيدي الدبلوماسيات الأوروبية، توجهها وفق مصالحها أو أهدافها.

مع العلم أن الدولة العثمانية بذلت كل ما في وسعها من أجل استرجاع الجزائر عن طريق الحلول الدبلوماسية، هذا رغم التراخي والانصياع للقوى الأوربية، ولكن تعتبر مساعيها هذه كمجهود معتبر، إلا أنه محدود النتائج والمردودية، والعريضة التي قدمها حمدان بن عثمان خوجة الى وزير الحربية العثماني، يناشد فيها بتقديم المساعدة، وجرى دراسة هذه العريضة في مجلس الشوري العثماني في أسطانبول، وكانت هذه العريضة بمثابة عامل قوي من أجل تقوية الاتصالات العثمانية في سبيل استرجاع الجزائر، وهكذا قررت الدولة

عثمانية ايفاد مصطفى رشيد باي كسفير فوق العادة في باريس تلبية لرغبة السلطان الهادفة الى استرداد الجزائر من الفرنسيين.

وعرج رشيد باي على فيينا ووصل باريس في أواسط سبتمبر 1834 ومرت الأيام للسفير العثماني في باريس بالزيارات الرسمية، حيث التقى بوزير الخارجية الفرنسي دوريني وقدم له رسالة السلطان العثماني الى الملك فيليب.

وبعد لقاء رشيد باشا بالسفير الروسي طلب منه الأخير التمهل في مفاتحه أو اثارة القضية الجزائرية أمام الفرنسيين.

وكانت الدولة العثمانية تسعى في تأييد بريطانيا للعثمانيين بشأن القضية الجزائرية وذلك بعد مجيء المحافظ اللورد ولنقتون الى السلطة، ولكن خاب الأمل بعد مقابلة جرت بين السفير العثماني نامق باشا واللورد ولنقتون، فقد أجاب اللورد أنه لا يستطيع أن يقرر ما إذا كان سيتدخل لدى فرنسا أم لا بشأن اعادة الجزائر للدولة العثمانية قبل تشكيل حكومته الجديدة تشكيلا تاما[7].

وفي 18 ديسمبر 1834 تقابل السفير العثماني مع وزير الخارجية الفرنسي وعلى أثر فتح رشيد باي موضوع الجزائر، في مطلع مقابلتهما، لم يرغب الأمير دي ريني في اثارة هذا الموضوع، ولكنه رضي بذلك بعد اصرار لطيف من السفير، وأعلم رشيد باي وزير الخارجية الفرنسي بأنه مكلف بالتباحث، لتأمين اعادة الجزائر للدولة العثمانية، كما بين للوزير بأنه سيقدم مذكرة بهذا الخصوص للحكومة الفرنسية، وعندما سأل الوزير عن تاريخ وصول تلك التعليمات اليه بشأن الجزائر، ردّ السفير بأنه «مع أن أصل مهمته هي تقوية الصداقة بين الدولتين، إلا أن لديه الصلاحية لحل الخلاف الناشيء عن القضية الجزائرية».

وفي ختام المقابلة أعلم وزير الخارجية أن فرنسا لن تتخل عن الجزائر ومع هذا فإنه سيعلم (أي الوزير) الوزراء الأخرين بإفادة رشيد باي، وأنه سيعطي الجواب القطعي في مقابلة ستجري فيما بعد، ولكنه لم يصدر شيء من وزارة الخارجية ووقتها أرسل رشيد باي عدة مرات لوزير الخارجية كان في كل مرة يسوفه في ذلك[8].

ولما زار سفير فرنسا الأمير روسين رئيس الكتاب، صرح له أثناء حديثهما بعدم إمكانية اعادة الجزائر للدولة العثمانية، إلا أن رئيس الكتاب أعلن من جهة، بأنه يأمل أن يأخذ رشيد باي جوابا إيجابيا بشأن القضية الجزائرية في المقابلة الثانية التي سيجريها مع وزير الخارجية الفرنسي، وتمكن أخيرا رشيد باي من الاجتماع بوزير الخارجية في 27 جانفي 1835، ولكن السفير العثماني لم يحصل على النتيجة التي كان يتوقعها من هذا الاجتماع وأعلمه الوزير بموجب تأخير المحادثات بشأن الجزائر، هذا فيما يخص المساعي الدبلوماسية العثمانية في صالح الجزائر، أما في داخل القطر فقد جرت في تلك الأثناء مقاومة شديدة للغزو الفرنسي في قسنطينة تحت قيادة أحمد باي وكانت قد وقعت اتصالات كبيرة بين أحمد باي والباب العالي عن طريق المراسلات، ووصول مبعوث عثماني الى قسنطينة (المدينة الجزائرية).

وأكدت الدولة العثمانية الى أحمد باي تمسكها بالجزائر، ولكن لم يكن ذلك كافيا، حيث بقيت مساعيها محصورة في الميدان الدبلوماسي لا غير، ولم تقم باي عمل أو أي اجراء حربي من أجل استعادة واسترجاع الجزائر الى حضرة الباب العالي، وهذا ما يبدو من خلال المساعي والاتصالات التي قام بها الباب العالي مع فرنسا وانجلترا وروسيا، حيث أن تلك الدول أظهرت معارضتها المطلقة مع لاستعادة الجزائر الى الدولة العثمانية.

وعندما وصلت رسالة من أحمد باي قسنطينة الى الباب العالي طالبا مساعدة من الدولة العثمانية للصمود أمام العدوان الفرنسي، وجد الباب العالي صعوبة في إرسال الأسلحة والعتاد الحربي الى باي قسنطينة، فقد رأى من الواجب التحقيق في هذه القضية[9].

وفي الأخير نجد موقفا غريبا للدولة العثمانية، إزاء الأمير عبد القادر قائد المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، إذ أن اجراء عقد معاهدة صلح بين الأمير عبد القادر وفرنسا، بعد سنتين من الحرب رأى السفير العثماني لوزي افندي في باريز. إن ربط علاقات صداقة من هذا النوع منافيا لمصلحة الدولة العثمانية وأرسل السفير العثماني في 11 جوان 1837، الى وزير الخارجية الفرنسي يطلب فيها تعيين وقت لمقابلته، وبين السفير في رسالته، استغرابه وتأسفه الكامل الموجب...بسبب وضع شخص عادي تابع للسلطة العلية، بشكل حاكم، ومصلحة جناب فخامة دولة فرنسا مع ذلك الشخص أمر مناف لأصول روابط الأخلاص والصفاء القائمة بين فرنسا والدولة العثمانية العلية.

وظهر جليا أن الدولة العثمانية لا تريد التدخل بقوة عسكرية لاسترجاع الجزائر وتحريرها من الاستعمار الفرنسي، والدليل على ذلك هو أن الأسطول العثماني الذي جاء خصيصا الى سواحل شمال افريقيا، لم يمكث كثيرا فيها، بعدما وجد مضايقة أثر رسو خمس قطع بحرية فرنسية في ميناء تونس، وهكذا غادر الأسطول العثماني ميناء هذه المدينة بعد وصوله لها بثلاثة أيام، وتوجه نحو جزيرة مالطة، وفي أواسط سبتمبر 1837م اقلع متوجها الى استنبول، الا أن الأسطول الفرنسي ظل يقتفي أثره حتى مضيق الدردنيل[10].

الغزو الفرنسي لمدينة الجزائر

إذا ما عدنا الى تطور القضية الجزائرية على مستوى العلاقات بين البلدين المتخالفين الجزائر وفرنسا نجد أنه بعد فشل المباحثات مع محمد علي والي مصر قررت الحكومة الفرنسية في 21 جانفي 1830م القيام بحملة برية وبحرية ضد الجزائر، وفي 07 فبراير من نفس العام، أعلنت التعبئة في الجيش، وبدأت الاستعدادات من أجل تجهيز الحملة، وفي 12 مارس بعثت مذكرة الى الحكومات الأوربية تخطرها فيها بالقرار، مدعية أن الداي قد ضرب وهدم مؤسسات فرنسا على السواحل الأفريقية وخربها تخريبا.

احتلال سيدي فرج

عندما بدأ الأسطول الفرنسي بالاقتراب من مدينة الجزائر استقبله أهالي المدينة بنوع من الدهشة والفزع، وتقدم من المدينة بسرعة بالغة ونشرت السفن قلاعها وسارت والريح تدفعها من الشرق الى الغرب، مارّة بالمدينة، كانت شبه جزيرة سيدي فرج قد اختيرت للنزول الى البرّ وتقع غرب الجزائر.

وعصر ذلك اليوم وصل رسول على ظهر جواد من الآغا أفندي الذي كان قد توجه مع بضعة آلاف من الجنود الى سيدي فرج، الى الداي وأخبره وأن الفرنسيين قد حطموا حامية سيدي فرج تماما وأن عدد من نزل منهم الى البر، حتى اللحظة التي وجه اليه فيها الرسول، يناهز العشرين ألفا، مع العلم أن الجيش الجزائري، كان قد قاوم مقاومة مستميتة، فكان العرب يندفعون بجيادهم نحو الفرنسيين، ويتوقفون في مكان قريب منهم، وينحنون فوق أعناق جيادهم، ويطلقون نيران بنادقهم ومسدساتهم ثم يولون الأدبار بالسرعة التي اقبلوا بها وكان قناصتهم يزحفون فوق بطونهم نحو الفرنسيين، فكانت طلقات قناصتهم

المتشددة بأحكام تعيب طلائع الفرنسيين قبل أن ينتبه اليهم الفرنسيون، وكانت هذه المعطيات تكلف الفرنسيين يوميا أكثر من مائة رجل[1].

على كل حال فقد انسحب الجيش الجزائري الى هضبة اسطاوالي بأمر من الداي.

وقد تولى الاغا افندي ابراهيم قيادة الجيش الجزائري، الذي كان ينضم اليه في كل يوم بضعة آلاف من العرب والقبائل بقيادة باياتهم وشيوخهم أو خلفائهم، فوصل باي قسنطينة الى أسطاوالي مع حوالي اثنى عشر ألفا، وباي تيطري مع ثمانية آلاف، وخليفته ثلاثة آلاف، وخليفة باي وهران ستة آلاف، وشيوخ القبائل مابين الستة عشر، والثمانية عشر ألفا، وأمير الميزابيين مع حوالي أربعة آلاف، وبذلك أصبح الجيش الجزائري، بإضافة الآغا افندي وسكان الجزائر الذين تواصلوا الى المعسكر دفعات كبيرة، يضم خمسين ألف رجل على الأقل.

المعركة الحاسمة في أسطاوالي بين الجزائرين والفرنسيين

وعندما تمركز هذا الجيش الجرار، وأخذ مواقعه فوق هضبة أسطاوالي أمر الداي بأن يتم الهجوم على الجيش الفرنسي، وأثنائه في صبيحة اليوم التالي، وقد ثار هذا الأمر حماسا شديدا في المعسكر، ذلك أنه لم يكن أحد من المسلمين شك في أن الجيش الفرنسي سيباد في اليوم التالي وفرح كثير من العرب والأتراك المعركة الشاملة التي كان موعدها صباح الغد، بحيث أنهم لم يحتملوا الانتظار

---

1) أنظر شفارتسنبرغ (Schwarzenberg) الأمير النمساوي الذي شارك في الحملة الفرنسية (وقد دون انطباعاته في Ruckblicke) وقد أوزده كمرجع: د. أبو العيد دودو في الكتاب الذي قدمه وعربه للأمير الألماني سيمون بفايفر، وعنوان الكتاب مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر / ص 130.

والبقاء في المعسكر، فهاجموا الفرنسيين واشتبكوا معهم في معارك استعملت فيها البنادق الصغيرة من الجهتين، وفي أثناء هذه المعارك حدث حادث في صفوف الجزائريين وهو موت أحد الجنود الجزائريين على يد انكشاري فقطع رأسه ليحصل على جائزة مالية من الداي، وكان هذا الجزائري أشقر يشبه في ملامحه الأوربيين، وقد خلقت هذه الفعلة بلبلة في وسط الجيش الجزائري غيرت كفة المعركة[12] وجرى تطويق الخلاف عن طريق التصالح بين الجزائريين والانكشارية.

واستمرت المعركة وأبدى الجيش الجزائري دفاعا مستميتا وقوة عظيمة أمام العدو الفرنسي، ذلك أنه في صبيحة اليوم التالي سمعت في الجزائر طلقات المدفعية آتية من جهة الغرب التي تهب منها الرياح، كانت ايذانا ببدء المعركة.

وأن هي إلا لحظة حتى تردد صدى مرعب فوق الجبال، وبين الحين والآخر كانت تسمع زمجرات المدفعية الثقيلة ممتزجة بدوي أكثر من سبعين ألف بندقية تطلق بالفتيلة الملتهبة[13] وفي العاشرة وصل رسول على جناح السرعة من أرض المعركة ليخبر الداي الذي كان مهموما جدًا، بأن القوات الجزائرية كلها قد هاجمت مواقع الجيش الفرنسي وأن المعركة متلاحمة بين الجيشين منذ ساعات بدون انقطاع، وأضاف الى ذلك أيضا، أن الجيش الفرنسي لن يباد نهائيا قبل حلول المساء فحسب، بل أنه لن يبقى فرنسي واحد بالبر الجزائري اطلاقا.

وقد سرّ الداي بذلك سرورا عظيما، وخلع على ذلك المحظوظ الذي أرسل اليه ليبلغه هذا الخبر، وعلم الأهالي خبر هذا النصر الذي سيكون من نصيبهم واستبد بهم السرور والبهجة سلفا.

ولكن عمّ الذعر والاضطراب مدينة الجزائر عندما حل الفرسان الهاربون حوالي الثانية بعد الظهر أخبارا تقول: أن بعضا من المقاتلين قد تركوا حوالي

---

(12) أنظر تفاصيل هذه الحادثة كما أوردها سيمون بفايفر في مذكراته أو لمحة تاريخية عن الجزائر ص 82.

(13) أنظر تفاصيل هذه الحادثة كما أوردها سيمون بفايفر في مذكراته، أو لمحة تاريخية عن الجزائر/ص/82 ــ 83.

الحادية عشر ميدان المعركة[14] وذلك في الوقت الذي تلاحم فيه الفريقان تلاحما شديدا، وبدت علائم النصر بجانب جيش الجزائريين، ولم يكن أولئك المقاتلون سوى بعض من أهالي سكان جبال شرق مدينة الجزائر فقد أنسحبوا دفعة واحدة على حين غرة.

وكأنما حدث ذلك استجابة لاشارة ما، وهربوا الى الجبال وهم يهتفون: «لقد غلبنا، فلنهرب ولينج بنفسه من قدر على النجاة» وقد نتج عن انسحاب القبائل أن شمل الاضطراب صفوف جيش المسلمين، فانتهز الفرنسيون هذه الفرصة، وصدوا هجوم المسلمين عنهم ثم هم الجيش الفرنسي كله والجنود يهتفون «حيا» و «يحيا الملك»، على هضبة أسطاوالي[15] وفي ذلك الحين اختلط الأمر على الجيش الجيش الجزائري كله، وعمت الفوضى بين صفوفه، وعجز عن الوقوف في وجه السلاح الأبيض الفرنسي، تفرقت جموعه، وهي تهتف «نعم الله» أو «استرني» وإذا بالفرنسيين يستولون على المدفعية الجزائرية ويصوبونها نحو الهاربين، مما زاد في خوف الجيش المندحر، وسرعة انهزامه فوقع في أيدي الفرنسيين مدافع عظيمة، وعدد من خيام المعسكر التركي يتراوح بين الستمائة

(14) ورد لنا دوتودو ــ في الكتاب المترجم لسيمون خايفر /ص 130. ما وصفه شلوزنستروغ (ص 141 ــ 144) معركة أسطاوالي على الصورة التالية: «في صبيحة 19 جوان استعد الجيش الجزائري، بعد أن أدى المسلمون صلاة الصبح عندما انطلقت نيران مدفعين تعلن بوحدات في وسط المعسكر، وكان العرب بقيادة باي قسنطينة، وباي وهران يشكلون الميمنة والميسرة، وكان فرسانهم يطوقون معسكر الفرنسيين، أما الأتراك وكان عددهم يتراوح بين الثمانية والتسعة آلاف يشكلون القلب، وكان الجيش الجزائري يكون نصف دائرة تتعدى المكان الذي ينتهي عنده الموقع الفرنسي، وتقدم الجنود الجزائريون للهجوم وهم يهتفون الله أكبر واجتازوا الحقول الذي كان يفصلهم عن إحدى الكتائب الفرنسية وكان الأتراك وأغلبهم من المشاة يهاجمون الفرق الفرنسية ويسوقهم بين أسنانهم وسكاكينهم بأيديهم وكأنهم يتقدمون للاستيلاء على سفينة معادية فلم تستطع كتيبتان فرنسيتان عند اللقاء الأول، الوقوف أمام هذا الهجوم العنيف وسقط أفرادها تحت ضربات السيوف ولكن الفرنسيين تقدموا الى اللقاء الثاني بالحراب واندفعوا نحو المهاجمين فاضطربت صفوف الأتراك وتراجعوا فكر الفرسان خلفهم ودحروهم وتبع انهزام الأتراك هروب العرب من الجناحين وانتهت المعركة بعد هجوم عام بالحراب قام به الجيش الفرنسي توسطا بعد الظهر الى معسكر أسطاوالي الذي لم يستطع الجزائريون إنقاذه عندما انهزمت طوائفهم فاستولى الفرنسيون على المعسكر والسهل بأكمله.

(15) أنظر تفاصيل هذه الحادثة كما أوردها سيمون خايفر، لمحة تاريخية عن الجزائر ص 83.

والثمانمائة، وجدوا فيها كثيرا من الأسلحة والزرابي الرائعة، وكذلك كمية من التبغ والبن وغيرها من المواد الغذائية، هذا بالاضافة الى بضعة آلاف من الدولب التي حمل عليها الأتراك أمتعتهم وآلاف أخرى من الأغنام.

أسباب مأساة سيدي فرج

أن أسباب مأساة سيدي فرج والهزيمة التي مني بها الجزائريون (والذي لا يعني نهاية الحرب مع الفرنسيين) تعود الى التغيير الذي طرأ على رأس قائد الجيش حيث تم استبدال يحي آغا بإبراهيم آغا في منصب رئيس الحربية (وهو بمثابة وزير الدفاع).

فكان الجيش الجزائري في عهد يحي آغا مجهزا أحسن تجهيز وأكثر تنظيما، وكان من عادته تدريب جيش المدفعية يوميا ويجري الاستعداد للدفاع كما لو كان العدو سيهاجمه في الحين، عندما فقدت الجزائر يحي آغا (الذي جرى التآمر عليه فقتل ظلما وعدوانا) تنبه كل عاقل بسقوط الجزائر، ويعتبر هذا التغيير الذي وقع بمثابة الغلطة الوحيدة التي ارتكبها الداي حسين خلال مدة حكمه التي دامت ثلاثة عشرة سنة، وخاصة أن هذا الخطأ وقع ابان الحرب مع فرنسا.

أما عن الاستعدادات الجزائرية في سيدي فرج من الناحية الحربية والدفاعية، فيبين لنا حمدان خوجة أن في سيدي فرج لم تحضر المدفعية ولم تحفر الخنادق ولم يكن هناك سوى أثنا عشر مدفعا كان الآغا السابق قد نصبها في بداية اعلان الحرب، وفي اليوم الذي نزل فيه المارشال دوبرمون مع جيشه، لم يكن تحت تصرفه (أي الاغا إبراهيم) سوى 300 فارس، وكان جيش باي قسنطينة يحتوي على عدد قليل من الجنود وصل عددهم ألف فارس، وكان جيش المارشال الفرنسي معرضا لأخطار، لأنه الذي أنزل الرجال قبل المؤن والمدفعية.

وفي اليوم الذي نزل فيه المارشال دوبرمون، وحسب ما يرويه عثمان خوجة الذي كان شاهد عيان ومعاصر أحداث الغزو الفرنسي، فيذكر أن باي

قسنطينة، لاحظ على الآغا إبراهيم (بمثابة وزير الحربية) بأن تنظيم الجيش الجزائري لا يسمح بأي أمل في النجاح.

وفي حالة ما إذا سار الجيش الفرنسي نحو مدينة الجزائر فإن انسحابنا سيكون دليلا لها، وحسب رأيه فإننا لن نكون قادرين على صدّه ولا على مقاومته، وأشار أنه ليس من باب السياسة أن تجمع قواتنا في نقطة واحدة وأن من الواجب توزيعها بحيث يحمل جزء منها الى غربي سيدي فرج ومعنى ذلك أن الفرنسيين إذا لاحقونا، فإنهم سيبتعدون عن هدفهم الذي هو مدينة الجزائر، وسيكون ذلك لصالحنا، إذ نستطيع أن نبداهم بالهجوم، وإذا قصد الفرنسيون الجزائر دون أن يهاجمونا، فإننا عندها سنكون أقوى وأقدر على الدفاع عن أنفسنا والانتصار عليهم، واقترح أيضا أن يتولى كل قائد الاعتناء[16] بجزء من الجيش، وكان مقر القيادة الذي وقع اختياره هو الدار البيضاء التي تفصلها عن أسطاوالي مسيرة أربع ساعات، وعن هذه الملاحظات أجاب الآغا إبراهيم: «أنكم لا تعرفون التكتيك الأوربي، أنه يتعارض كل المعارضة مع تكتيك العرب» ورأى باي قسنطينة في هذه الاجابة اهانة له، لذلك التزم الصمت.

رأي حمدان خوجة في الاحتلال

ويقول حمدان خوجة حول عشية الاحتلال المباشر لسيدي فرج: كنت بنفسي عشية الاستيلاء على اسطاوالي عند الآغا إبراهيم رئيس الحربية للتعرف على الأوضاع، فتعشيت معه، ومع باي قسنطينة، وباي التيطري، وخليفة باي وهران، وخوجة الخيل، وفي تلك الليلة اقترب مني الآغا ابراهيم وأخبرني بسرّ مفاده أنه بعث جواسيس لتدويخ الفرنسيين وتوجيههم نحو حصن الأمبراطور والانقضاض عليهم، وقال أنه وزع عشرة خرتوشات على كل جندي جزائري...! ولاحظ حمدان خوجة أنه لا بد أن تحفر خنادق لحماية الجيش والدفاع عنه، فأجاب بنفس الثقة، نحن نشكل الخنادق الحقيقية.

وبعد هزيمة سطاوالي غادر إبراهيم آغا المعكسر وكله يأس وبعد يومين دعى حسين باشا، حمدان خوجة لمعرفة حقيقة الأمور فأجابه قائلا: ان الحرب حظ مخطر، ولا يحق للقائد أن ييأس لأن يأسه يؤدي الى الهزيمة الكبرى والهزيمة قد تصبح نصرا إذا توفرت لها المقاومة والصمود.

وعندما كلم حمدان خوجة حسين باشا عن سلوك صهره إبراهيم آغا كلفه بالذهاب اليه وتشجيعه والزامه بجمع جيشه وعدم التفكير في الفشل وعندما وصل حمدان خوجة الى ساحة الوغى في سطاوالي وجد بعض الجنود المشتتين هنا وهناك[17] وعثر عليه بعد جهد جهيد في دار ريفية، كان يختفي فيها مع ثلاثة أو أربعة من خدمه، وكان الجيش بدون قائد والقبائل يجهلون في أي مكان يختبيء، وعليه لم يبق إلا تسليم المدينة للفرنسيين، لم يكن المشاة منظمين فما بالك بالمدفعية.

وكلف حسين باشا شيخ الاسلام بأن يجمع الشعب للدفاع عن البلاد لأنه لم يكن هناك قائد للجيش له دراية بشؤون الحرب، ولكن وقع مالم يكن في الحسبان، فقد نصح شيخ الاسلام الأمين الذين يحيطون به الاحتراس من حمدان خوجة لأنه عاش في البلاد الأوربية وأعجب بعاداتها. بعد هزيمة اسطاوالي التي مني بها جيش الأتراك، عاد سكان مدينة الجزائر والانكشاريون الى المدينة وقد أستولى عليهم الذهول والانكسار حاملين معهم عددا كبيرا من الجرحى، وقد بقي مع ذلك آلافا من القتلى والجرحى جرحا خطيرا في أرض المعركة، وكان الطريق كله من اسطاوالي الى الجزائر مغطى بالجرحى، وتسلل الكثير منهم الى الأدغال.

حيث عثر المسلمون على بعضهم فيما بعد، والفرنسيون على بعضهم الآخر من بينهم عدد من الموتى، الذين نهشت لحومهم الحيوانات المفترسة[18]

---

(17) حمدان خوجة — المرآة (ص 196) — تعريب د: محمد العربي الزبيري.
(18) سيمون بفايفر — مذكرات، أو لمحة تاريخية عن الجزائر — ص 84.

كانت دهشة الداي تفوق الوصف، مما وقع في نهاية معركة اسطاوالي وكان ذعر السكان قد وصل الى حد، جعل الكثير يتسكعون في الشوارع في ذهول تام، وأخذ بعضهم يتساءل عن مكان وجود الفرنسيين.

جرحى المعارك الطاحنة

وحمل من أرض المعركة عدد كبير من الجرحى الى الجزائر، ونظرا الى عدم وجود أطباء لدى حكومة الداي فقد طلب من الأسير الألماني لدى الأتراك سيمون بفايفر[19] بمعالجة الجرحى، وتضميد جراحهم، فأمر بفايفر بجمع الجرحى في أكبر ثكنة من ثكنات الانكشاريين، وكان عددهم حوالي ثمانمائة وستين، أما بقية الجرحى وأغلبهم من الجزائريين والأتراك المتزوجين، فقد وضعوا في البنايات العامة الأخرى، أو في منازلهم الخاصة، وكان عددهم يناهز السبعمائة قد أصيبوا على العموم برصاص البنادق، باستثناء عدد قليل منهم، أصيبوا بقنابل المدافع، واثنين برؤوس الحراب[20].

وقد استعمل سيمون بفايفر كتان الخيم العتيقة في الضماد لعدم وجود وسائل أحسن منه، ولم تكن هناك نسالات أيضا فكان لابد من نتفها أولا، وساعد بفايفر جميع الحلاقين من العرب واليهود، إلا أن هؤلاء كانت تنقصهم الخبرة والآلات اللازمة للضمادة، وقد جرى تعليم خمسة منهم كيفية استعمال الضماد المناسب، أما الباقون فقاموا بقطع العصابات من الخيم القديمة ونسل النسالات[21].

ولقد كان عالم الجرحى يتسم بالتعاسة والعويل والنحيب، وقام سيمون بفايفر الطبيب الألماني (الأسير) في خلال أربع ساعات بتضميد جراح مائتين

(19) لقد أقبل سيمون بفايفر الألماني (من مواليد 1810) بمطلقة ليسين على دراسة فن الجراحة وهو في سن الثالثة عشر، ومع طول الوقت أظهر فيها تقدما ملحوظا.

(20)،(21) سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر – ص 87، 88.

وأربعين انكشاريا، وأخرجت من أجسامهم في هذه المدة المحدودة خمسا وستين رصاصة، ورصاصتين محشوتين بقطع الحديد، وفي خلال هذه الساعات الأربع حرر الموت سبعة وعشرين جريحا من الآمهم مات البعض منهم تحت يدي الطبيب الألماني.

كانت القاعة الواحدة تضم بين جدرانها بين الثلاثين والخمسين جريحا كانوا في حالة خطيرة وقد أصطف بعضهم بجانب بعضهم الآخر فكانت الأصوات سرعان ما ترتفع منادية الطبيب لتهدئه الامهم المبرحة ويصف لنا سيمون بفايفر حادثة مؤثرة وهي معالجته لزوجين أصيبا في معركة أسطارالي وقد وجد الطبيب سيمون بفايفر أن الوضع الذي أرسل في طلبه أخطر مما كان يتصور، فقد كان صاحب البيت وهو شاب في مقتبل العمر يعاني اللحظات الأخيرة، ذلك أن رصاصة العدو أصابت حوضه الأيمن[22] وحطمته، وعندما أراد أن يفحصه الطبيب بدقة قال له: دعني أموت ياصديقي ! لا تضيع وقتك معي دون فائدة، فإني أشعر باقتراب ملاك الموت مني، لكني أرجوك أن تسرع الى زوجتي لانقاذها إذا أمكنك ذلك.

وقادت الطبيب وصيفة الى غرفة أخرى حيث كانت الشابة، إبنة الثامنة عشرة طريحة الفراش، وقد أصيبت إصابة خطيرة، وكانت قد جلست قرب فراشها أم باكية، حاولت أن تغطي وجه الفتاة المريضة بقناع عند دخول الطبيب، إلا أن المعذبة قالت لها بصوت ضعيف: ــ أبعدي (العجار) عني الآن ! أن الطبيب لن ينظر الى، أنا المرأة الميتة، ولم يغضبه أن يراني بدون (عجار) !

فهدأ الطبيب من روعها، وفي أثناء ذلك وقع نظره على جمالها ذلك الجمال الذي هداه اليه صوته الناعم المنغوم، لقد رأى وجها زاد اقتراب الموت من نقاء ملامحها ونضارتها، فزاد جمالها سموا ورفعة وسنى، فزاوج الجمال الشرقي بالعفة الألمانية[23].

وروت للطبيب أمها باكية كيف حملت إبنتها الغالية القربة على ظهرها، ولحقت بزوجها من حبها له الى أرض المعركة، وكيف أصابت زوجها رصاصة العدو القاتلة، فساعدته، وهي زوجة على الابتعاد عن ضجة المعركة، فأصيبت هي نفسها برصاصة في ظهرها، أن هذه القصة وشكاية الأم في عواطفها، واقترب الطبيب من الجريحة الجميلة فشكت له بأنها تحس بضغط موجع تحت ذراعها اليسرى، وحين فحصت الموضع لاحظت تحت ورم يشبه الأسفنج أشياء كثيرة صلبة ففتحت الورم بسرعة، وإذا بالطبيب يجد بين ضلعين من أضلاعها رصاصة بندقية وقطعتين من رصاصة مكسورة، وخرقة من الصوف كانت قد انفصلت عن ردائها ودخلت جسدها مع الرصاص[24] وقد لصقت هذه الأشياء كلها بين ضلعين، وسبب للمسكينة آلاما يقصر الوصف عنها، وما أن أبعدت هذه الأشياء حتى انتهت تلك ملطخة بالدم، وشكرته بحرارة على أنه أتاح لها بضع ساعات لا تتألم خلالها ويذكر لنا الطبيب في الأخير، كم كان بوده أن ينقذ حياتها ولكن شفاءها أصبح بعد أن أصيبت رئتها أمرا مستحيلا، وعندما غادر الطبيب الدار كان كئيبا حزينا لأنه ترك ملاكا من هذا النوع يموت وذهب ليحضر لها من صيدلته كل ما تبقى من عصير التوت، وذلك لتنتعش به في ساعاتها الأخيرة قبل أن تموت[25]، كان أسم تلك الزوجة الجريئة خيرة.

إحتلال مدينة الجزائر

وظل الفريقان يتقاتلان بضراوة، وكان الجيش الفرنسي قد تحصن في اسطاوالي، وسيدي خلف على بعد أربع ساعات من الجزائر، وكانت القوات الجزائرية المحاربة تزيد عن عشرين ألف رجل، بقيادة رجال الدين، إلا أن القيادة العامة كانت بيد مصطفى بومزراق، باي تيطري وهو أشجع قواد الداي، وقد حاول القائد العام أن يتجنب في تلك الآونة الالتحام مع الفرنسيين في معركة

---

(24) سيمون بفايفر — مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر — ص 95.
(25) سيمون بفايفر — مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر — ص 95.

فاصلة حاسمة، وبذلك أمكنه أن يلحق بهم خسائر أكثر عن طريق التحرش بهم ومناوشتهم بدون انقطاع وخلال ذلك كان يحمل يوميا عدد من الأسرى الفرنسيين الى المدينة من بينهم بعض الجرحى، ولما كان سيمون بفايفر الطبيب الألماني يقوم بمعالجتهم، فقد علم منهم أن الفرنسيين لم يواصلوا زحفهم على مدينة الجزائر بسبب تأخر وصول السفن التي كانت تحمل على ظهرها المدفعية الثقيلة. وفي آخر الأمر، قرّ عزم الفرنسيين على الزحف الى الجزائر، وعلى الرغم من أن القوات الجزائرية كانت تعترض طريقهم في كل مكان فقد أستطاعوا بمدافعهم الوصول الى هضبة، تمكنوا من نصب مدافعهم فوقها وتسليط حممها على قلعة الأمبراطور[26]، وقذفت مدينة الجزائر كذلك من جهة البحر لأيام عديدة، وذلك بعد أن اقترب الأسطول من ميناء الجزائر، وأصبح من غير الممكن أن يطمئن الانسان على حياته في أي حي من أحياء المدينة[27]. إذ كانت القذائف تطير فوق رؤوس الناس مصفرة وقد أصيبت دور كثيرة اصابات بالغة.

بحيث أنها لم تلبث أن أنهارت انهيارا كان له دوي فظيع، وكانت النساء قد خرجن الى السطوح باكيات نادبات صائحات، كأنهن يردن بذلك استدرار عطف الفرنسيين، غير أن المدافع ظلت تصب حممها دون ما هوادة، ولم تكن حاميات المدينة ترد عليها إلا بصورة ضعيفة وكان أغلب اليهود قد تركوا المدينة خوفا من القذائف، وصعدوا جماعات الى الجبال التي ترتفع خلف المدينة، ولكنهم لم يطمئنوا هناك على حياتهم، فقد أتهمهم الانكشاريون بأنهم قد تسللوا ليلا الى معسكر العدو ولم يزودوه بالمواد الغذائية فحسب، بل أنهم دلوه أيضا على جميع الطرق التي تسهل له الصعود الى الجبال، وهكذا هاجم المسلمون اليهود وقتلوا بعضهم ونهبوا آخرين.

---

(26) سيمون بفايفر — مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر — ص 97.
(27) سيمون بفايفر — مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر — ص 98.

مأساة مدينة الجزائر
تهديمها وتخريبها

بعد استلام مدينة الجزائر ودخول المستعمرين الفرنسيين، وقعت هجرة كثير من العائلات العربية والتركية خارج البلاد مرغمين من قبل القوات العسكرية الفرنسية الغازية، وجرت بعد ذلك عملية الهدم «المنظم» للأحياء، والأسواق، والأحياء الصناعية التقليدية، وكذا الحي الشمالي وكل ذلك كان بعد من المعالم الحضارية الجزائرية الأصلية لمدينة الجزائر، فقد أمر الجنرال كلوزيل بتهديم القيصرية التي كانت مختصة في بيع الكتب، وكان يوجد بها الناسخون، لأن المطابع لم تكن معروفة في الجزائر آنذاك، وهدم نفس الجنرال محلات كانت تدعى: سوق المقاييس تصنع فيها الأسوار من قرون الجواميس، وهي أساور جرت العادة أن تزين بها نساء العرب، والقبائل أذرعتهن في مدينة الجزائر، وتصدر الى تونس، وطرابلس، وحتى الى مصر[28].

وكانت المادة الأولية، التي هي قرون الجواميس، تشتري حمولات بأكملها، وكان لأصحاب المصانع مندوبون مكلفون بشراء تلك المادة الأولية وتوزيعها على كل مصنع حسب أهمية المؤسسة وبرؤوس أموال قليلة، كانوا يقومون بتجارة واسعة، وكان هذا الفرع من الصناعة يشغل عددا كبيرا من السواعد، وبعد تهديم الفرنسيين هذه المحلات أصبح كل هؤلاء العمال بدون مورد واضطروا الى التسول[29]، وهدم نفس الجنرال محلات تدعى سوق الصباغين، وكان العرب والبدو يأتون خصيصا الى مدينة الجزائر ليصبغوا فيها كل ما لديهم من قماش، وكانت هذه الصناعة هامة تستهلك كمية كبيرة من القرمز والنيلة والفوة وغيرها من التوابل الصالحة للتلوين.

وعندما تهدمت هذه المحلات، قضي على جزء كبير من الصناعة الجزائرية، وقع تهديم محلات أخرى تسمى الفرارية، وهي خاصة بجميع أنواع الأدوات

الحديدية المصقولة مثل الأقفال وصفائحها وأنابيب البنادق الخ، ولم يترك إلا حوالي ثمانية حوانيت معزولة، وجرى تهديم ثلاث مساجد كانت خاصة بسكان تلك المحلات الثلاث، وهدمت أيضا مصانع الحرير وكانت صناعة الحرير من أهم الصناعات في مدينة الجزائر.

لقد كانت حمولات المراكب من الحرير تأتي من بيروت أو أزمير فتصنع منها الأقمشة وغيرها من المواد الأخرى، ثم تصدر الى المملكة المغربية وتونس وطرابلس، وتركيا، ومصر، وحتى الى سوريا[30].

وهناك محلات أخرى، تسمى السوق الكبير كان يباع فيها الكتان، والملابس المنسوجة، وتصنع فيها الحبالة الحريرية، والفتائل، والازرار. لقد قام الجنرال كلوزيل بتهديم جزء من هذه المحلات، وما تبقى أكمله الدوق دوروفيكو.

وجرى تهديم مسجد السيدة بايعاز من اليهود الذين عرفوا نقطة الضعف عند الجنرال كلوزيل، إلا وهو طمعه في الثورة، مما جعلوه يلعب أكبر دور مثير للسخرية، فأوهموه بأن جامع السيدة يحتوي على كنوز الداي، ولذلك صار هذا الجنرال يزوره في خشوع ويقصده مرارا «للصلاة فيه، والدعاء» ثم قرر «بكل عفة» أنه يستولي عليه، وعلى الزرابي، والثريات، والمشاعل، وعلى منبر رخامي كان هناك.

وهكذا أمر الجنرال كلوزيل بغلق أبواب المسجد، وأدخل اليه ليلا جماعة من العمال للبحث عن الكنز المزعوم، وظل الأمر كذلك الى أن استنفذت جميع وسائل البحث وضاع كل أمل.

ولتغطية هذه الفضيحة شرع حينا في تهديم ذلك المسجد الذي كان يشتمل على أعمدة من الرخام النادر[32]، وعلى أبواب ضخمة قيل أنها يعث،

---

(30) حمدان بن عثمان خوجة ــ المرآة ــ ص 278.
(31) حمدان بن عثمان خوجة ــ المرآة ــ ص 279.
(32) حمدان بن عثمان خوجة ــ المرآة ــ ص 279.

فكيف يمكن بيع أشياء هي من ملك المسلمين وحدهم، ويقال أن تلك الأشياء نقلت الى تولوز وقد كانت حيطان ذلك المسجد مغطاة بمربعات الخزف الصيني التي أستوردت من اسبانيا، وكانت في المسجد أيضا عارضات كبرى من خشب الكرسنة النادر الذي يستورد من فاس بإذن، لأن ملك المغرب لا يوافق على تصديرها إلا بصعوبة، وقبل الانتهاء من تهديم هذا المسجد الذي لم يحصل إلا للبحث عن الكنز الموهوم، وقع الاستيلاء على جميع الأشياء المذكورة اعلاه، وهكذا اشفى الجنرال غليله بحثا عن الكنز ولكن هيهات فلم يعثر عليه، فخاب أمله.

وجرى تهديم المعالم العربية الاسلامية لمدينة الجزائر بصفة متعمدة من قبل المحتلين الفرنسيين، فهدمت الجنينة حجرا حجرا، وعفت آثارها كلها في عام 1856 ولم يبق من القصور التي كانت في داخل أسوارها سوى قصر الأسقف، وترك جامع كتشاوة الشهير بين عامي: 1845 — 1860 وقامت مكانة الكنيسة الكاثوليكية وقوضت أركان مسجد السيدة كما ذكرت آنفا، وحول مسجد حاجي حسين الى كنيسة.

وضمن عملية التشويه والمسخ الاستعماري أتخذت مساجد أخرى ثكنات للجند، أو مخازن عسكرية، وما وافت سنة 1863 حتى لم يبق من مساجد العبادة التي بلغت 176 مسجدًا في عام 1830 سوى 48 مسجدًا (تسعة مساجد كبيرة، وتسعة عشر مسجد صغيرا، وعشرين خلوة وزاوية) من جملة هذه المساجد الباقية التي نجت من الهدم الاستعماري:
الجامع الكبير، ومسجد السماكين الذي شيد عام 1660م، ومسجد سيدي عبد الرحمن الثعالبي الذي شيده عام 1696 الداي الحاج أحمد في موضع أقدم منه عهدا.

وهدمت أغلب الحصون الاسلامية لمدينة الجزائر بعد الغزو الفرنسي التي بنيت في العهد التركي، ولم يبق من القصبة(33) كما كانت عليه في عهدها السابق إلا آثار قليلة هي بيوت عربية صغيرة، وفوارة، والجوسق الذي يسمونه جوسق ضربة المروحة، وأرسلت السلطات الفرنسية بطاريات المدافع، وهدمت التحصينات التي كانت تواجه البحر.

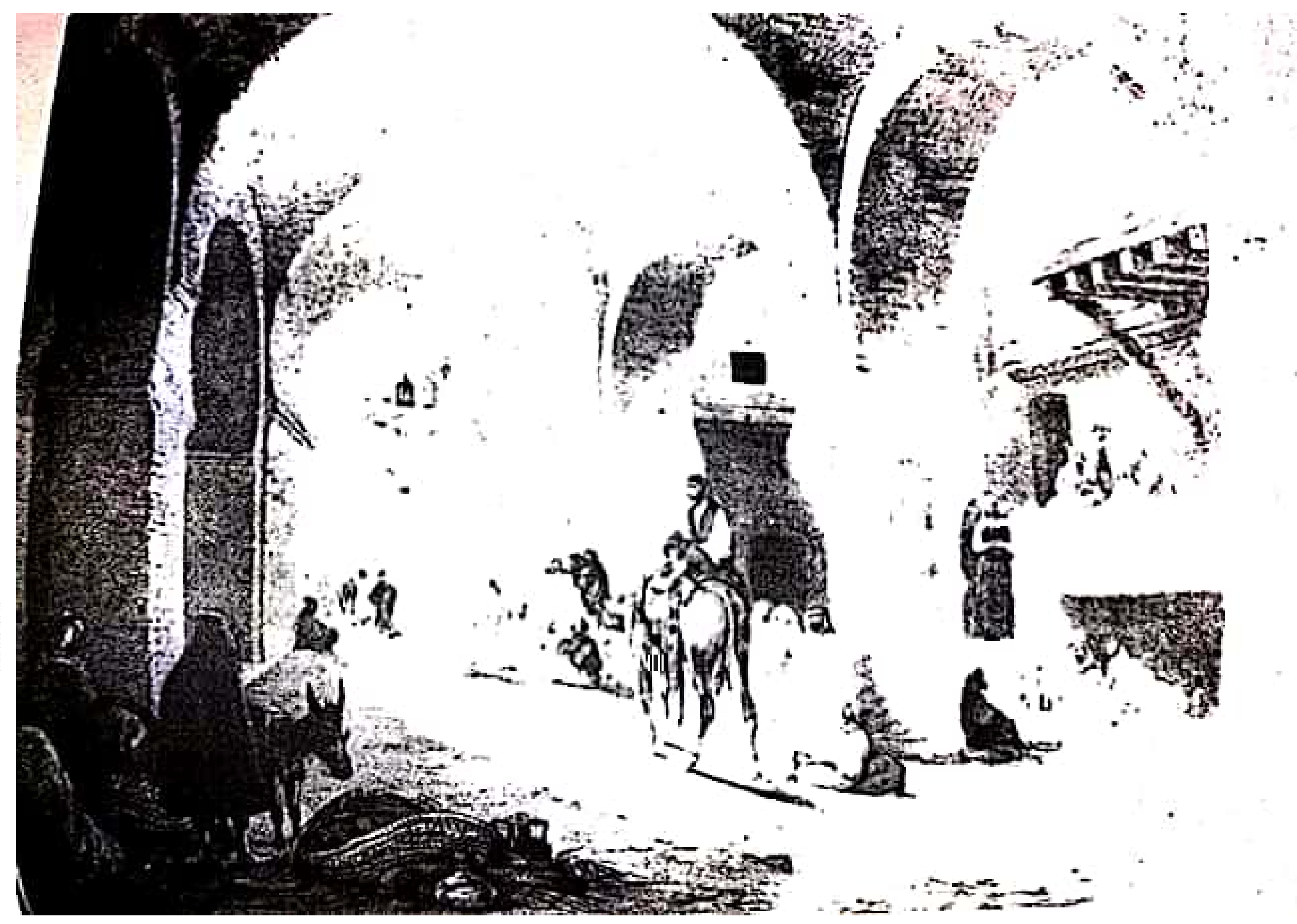
وبنيت في غرب مدينة الجزائر وشرقها مباني كثيرة على الطراز الأوربي(34)، وأنشأت في الجزء الأسفل منها شوارع على نمط الشوارع الأوربية تقطعها شوارع أخرى تسير في الجزء الأعلى من المدينة فشوّه ذلك الطابع العربي الاسلامي للمدينة باستثناء بعض الأجزاء من القصبة التي نجت من الهدم حيث بقي الجزء الأعلى منها مركزا لنمط أو لطريقة العيش حسب التقاليد العربية الاسلامية، فالأهالي الذين يقيمون فيها يسهرون حتى الفجر خلال ليالي رمضان ويلبسون اللباس التقليدي الجميل رجالا ونساء، ويزدحمون في أزقتها عند المساء متجولين.

ويذكرنا كل ذلك بمدينة فاس (أي المدينة العربية القديمة كحي البطحاء والطالعة وباب الفتوح...الخ)، وكذا بقصبة مراكش، ومدينة الصويرة العتيقة والأحياء العربية بمدينة الجديدة.

والعجيب أن جزءا هاما من الصناعة التقليدية مازال موجودا في القصبة فالأهالي الجزائريون متمسكون بصناعاتهم وحرفهم الوطنية الصغيرة حتى اليوم.

---

(34) عندما أنشئت المدينة الأوروبية في الجزائر زاد عدد السكان الأوروبيين المهاجرين نحو المدينة فوصل عددهم الى 138 000 نسمة سنة 1901 ثم الى 144 000 في إحصاء عام 1906 وكان سكان المدينة الأوروبية خليط من أجناس، واستخدم الأوروبيون سياسة تضييق الخناق والتجويع والإرهاب والتفقير ضد أهالي مدينة الجزائر مما جعل بعضهم يهجرها. أما الذين نجوا من الهجرة والرحيل فقد تكاثروا في الجزء الذي لم يهدم من القصبة والذين مازالوا فيها حتى اليوم والقصبة تعتبر الجزء الباقي من مدينة الجزائر العربية الإسلامية.



إن مدينة الجزائر كان لها حضارة عربية إسلامية عبر التاريخ وتتجلى هذه الحضارة في الحمامات العربية والمقاهي العربية وعادات الزواج وليالي الأنس والطرب والغناء في العهد الاسلامي والعثماني، وأعني بذلك الحياة الحضارية والثقافية والدينية التي كانت سائدة في العصور الاسلامية بصفة عامة، ولولا احتلال مدينة الجزائر من قبل المستعمر الفرنسي وهدمه لجزء كبير من المدينة العربية لبقيت حضارة المدينة ومعالمها مستمرة على مرّ الزمن ولكن هيهات، فحركة التاريخ انعرجت منعرجا خطيرا فوقع مالم يكن في الحسبان، فعانت مدينة الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي البغيض أشرس تشويه وأعنف تدمير، فغير الاستعمار وجه المدينة تغييرا خطيرا فزالت معالمها العربية، وأبدلها بتصاميم غربية قلبا وقالبا، وصاحب ذلك تغيير طبائع الناس وافساد عقولهم وتغريبهم، فكانت من نتائج السياسة الاستعمارية تغريب اللسان (وأعني فرنسته) فأصبح الجزائري أي قاطن المدينة منذ عقود طويلة ممزق الشخصية غربي الفكر والعقل ينبذ الحضارة الشرقية ويتهافت على كل ما هو غربي، فأصبح الجزائري يعيش حالة ضياع، وهذا كنتيجة حتمية لسياسة الفرنسة التي عانى منها مواطن مدينة الجزائر ومازال حتى اليوم.

ويمكن أن نستثني من ذلك النشأ الصاعد من ظاهرة الضياع، لأن سياسة التعرب التي تنتهجها القيادة في البلاد تحول دون وقوع الجيل الجديد في تلك الضياع الذي عاناه وما زال يعانيه الجيل القديم من مواطني مدينة الجزائر.

المدية في 1985/02/09

بقلم الدكتور : أحمد بن حسن السلماني
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الجزائر

. أبي عبيد البكري(المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب) وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، طبعة:دي سلان/باريس 1965م.
. خالد بن عيسى البلوى(تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) الجزء الأول مقدمة وتحقيق العلامة الحسن السائح، طبع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الاسلامي بين المملكة المغربية ودولة الامارات العربية (مطبعة فضالة ـ المحمدية) المغرب.
. إبن حوقل أبو القاسم محمد(كتاب صورة الأرض) الجزء الأول.
. الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) حققه الدكتور: إحسان عباس ـ دار الفكر ـ بيروت 1968م
. عبد الرحمن بن خلدون كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني بيروت 1968.
. محمد بن عبد المنعم الحميري (كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار) ـ معجم جغرافي مع مسرد عام ـ حققه الدكتور: احسان عباس مكتبة لبنان 1975م.
. أبو عبد الله الشريف الادريسي: المغرب العربي من كتاب (نزهة المشتاق) حققه ونقله الى الفرنسية محمد حاج صادق.
ـ القارة الافريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب (نزهة المشتاق) تحقيق: إسماعيل العربي ـ الجزائر 1983م.
. الحسن بن محمد الوزان الفاسي (وصف افريقيا) المعروف: بليون الافريقي. ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي، محمد الأخضر ـ طبعة ثانية 1983م دار الغرب الاسلامي ـ بيروت.

- عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر ـ الطباعة الشعبية للجيش ـ الجزائر.
- عبد القادر حليمي (مدينة الجزائر: نشأتها وتطورها، قبل 1830م المؤتمر 1972م.
- الدكتور: أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي) الجزء الأول والثاني ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر.
— دراسات وأبحاث المدن الثلاث: المدية، مليانة، الجزائر ـ بمناسبة عيدها الالفي ـ مجموعة مقالات بأقلام مختصة ـ إعداد ودراسة عبد الرحمن الجيلالي.
- محمد كواسي (جزائر الأمس، الجزائر الخالدة) المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر.
- الشيخ/أحمد توفيق المدني (كتاب الجزائر) ص36. الجزائر 1984 طبعة جديدة.
- الدكتور: أرجمندو كوران (السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي ـ تونس 1974 ـ نقله عن التركية، الدكتور: عبد الجليل التميمي 1828ـ1847م.
- هاينريش فون مالتسان ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا تعريب د. دودو الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر
- وليم سبنسر الجزائر في عهد رياس البحر تعريب د. عبد القادر زبادية 1980
— الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان: تعريب د. دودو.
— مذكرات شالر قنصل أمريكا في الجزائر: تعريب د. أسماعيل العربي
- الدكتور لوي كارديالك الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية 1492م 1640.
تعريب د. عبد الجليل التميمي تونس 1983.
— القصبة الهندسة المعمارية وتعمير المدن: تأليف مجموعة من الأساتذة والفنانين الجزائريين رياض الفتح 1984، 1985
— المجلة التاريخية المغربية: ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.
عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج4
مولود قاسم نايت بلقاسم شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 ج1.

